العلامة الكبير الفيض الكاشاني

الرجوع الى اللّه

المراقبة
المحاسبة
التوبة
الموت

شبكة الفكر
alfeker.net

الرجوع إلى الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الرجوع إلى الله

المراقبة - المحاسبة - التوبة - الموت

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

منشورات ذوي القربىٰ

- اسم الكتاب: الرجوع الى اللّه
- المؤلف: فيض كاشانى
- الناشر: ذوي القربى
- الطبعة: الأولىٰ
- تاريخ الطبع: ١٤٢٦
- الكمية: ١٥٠٠
- المطبعة: ظهور
- شماره مجوز كتاب: ف / ٢٦ / ١٧٧٢٠ ـ ٨ / ١١ / ٨٤
- شابك: ٩٦٤ ـ ٥١٨ ـ ٠٤٥ ـ ٧

مركز پخش: قم ـ پاساژ قدس ـ طبقه اول ـ پ ٥٩ ـ تلفن: ٧٧٤٤٦٦٣ ـ ٢٥١ ـ ٩٨+

عراق ـ نجف الأشرف ـ سوق الحويش ـ همراه: ٠٧٨٠١٠٠٣٥٧٢

المراقبة والمحاسبة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾(1).

وقال عز وجل:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾(2).

وقال عز اسمه:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(2) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾[(1)].

وقال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[(2)].

وقال سبحانه:

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[(3)].

وقال عز وجل:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[(4)].

وقال تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[(5)].

فعرف أرباب البصائر والقلوب من هذه الآيات أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في يوم الحساب، وأنهم سيطالبون

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٦.

(٢) سورة الزلزلة، الآيات: ٦ ـ ٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللّحظات، وتحققوا أنهم لن ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة.

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في يوم القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه. ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

فلما انكشف لهم كل ذلك علموا أنه لا نجاة لهم من هذه الشدائد إلا بطاعة الله عز وجل وقد أمرهم بالصبر عليها والمرابطة حيث قال عز اسمه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[1].

فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم المراقبة، ثم المحاسبة، ثم المعاقبة، ثم المجاهدة، ثم المعاتبة فكانت لهم في المرابطة ستّ مقامات لا بد من شرحها وبيان حقيقتها وتفصيل الأعمال فيها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

المشارطة

إن العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وهو يطلب الربح من خلال تزكية النفس، إذ بها فلاحه حيث قال عز وجل:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾(١).

وفلاح النفس يكمن بالأعمال الصالحة، والعقل يستعين بهذه النفس في تجارته فيستعملها ويسخرها فيما يزكيها. ويحتاج العقل كذلك إلى مشارطة النفس أولاً، فيفرض عليها الوظائف، ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويلزمها بسلوك هذا الطريق ولا يغفل عن مراقبتها لحظة واحدة، فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال.

فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء، لذا فإن تدقيق الحساب مع النفس أهم بكثير من تدقيق الإنسان في أرباح الدنيا وحساباتها، خصوصاً إذا علمنا أن مصيرها إلى التصرّم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم.

لذا كان من الحري على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن

---

(١) سورة الشمس، الآيتان: ٩ و١٠.

لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسَكناتها. فإن كل نَفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، وانقضاء هذه الأنفاس من دون الاستفادة منها سيجلب الهلاك والخسران العظيم والذي لا يمكن أن يسمح به أي عاقلٍ.

فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، فينبغي عليه أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، فيقول لنفسه: ما لي بضاعة في هذه الدنيا إلا العمر، فإذا فنى هذا العمر فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا يوم جديد قد أمهلني الله عز وجل إياه وأنعم به عليّ، ولو توفاني الله تعالى لكنت تمنيت أن يرجعني إلى الدنيا ولو ليوم واحد لكي أعمل فيه صالحاً.

فإياك يا نفسي أن تضيّعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد في الخبر:

«إنه ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوّة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فينال من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلة عند الملك الجبار ما لو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار. ثم يفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنّة لتنغّص عليهم نعيمها، ويفتح له

خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسرّه ولا ما يسوؤه»[1].

وهي الساعة التي نام فيها أو غفل واشتغل بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسّر على خلوّها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته.

فاجتهد اليوم في أن تعمر خزائنك ولا تدعها فارغة من الكنوز التي هي أسباب ملكك ولا تركن إلى الكسل والدّعة والاستراحة فتفوتك درجات العلّيين، فتبقى بعدها حسرة لا تفارقك أبداً، وان ألم الغبن والحسرة لا يطاق. قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[2].

ثم على الإنسان أن يشارط أعضاءه السبعة وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، إذ بهذه الأعضاء تتم أعمال هذه التجارة. وقد قيل إن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منها جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله بهذه الأعضاء. لذا فعلى الإنسان أن يحفظ أعضاءه من أن تعصي الله وتخالف أمره.

أما العين فيحفظها عن النظر المحرّم، بل عن كل فضول هو مستغن عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام. فإذا صرف النظر عن المحرمات قام وشغلها بما فيه تجارتها وربحها، من خلال النظر إلى عجائب صنع الله عز وجل بعين

---

(١) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٦٧.

(٢) سورة التغابن، الآية: ٩.

الاعتبار والاتعاظ، وكالنظر إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومطالعة كتب الحكمة و. .

أما اللسان فمن خلال الاشتراط على النفس بأن لا يحرك اللسان إلا في الذكر والدعاء، والابتعاد عن آفات اللسان المهلكة كالغيبة والكذب والنميمة والطعن والمماراة واللعن وغير ذلك. . . وقد قال تعالى في كتابه المجيد:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

أما البطن فيكلفها ترك الشهوة وتقليل الأكل واجتناب الشبهات، ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط عليها إن خالفت شيئاً من ذلك أن يعاقبها.

وهكذا يشترط على جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول ومعاصي الأعضاء غير خافية.

وعلى الإنسان أن يشارط نفسه في كل يوم، ولكن إذا تعوّد الإنسان بأن شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها بعد مدة، وإن أطاع في بعضها دون البعض الآخر بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي.

ولكن لا يخلو كل يوم من مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه فيه حق. وهذا يكثر على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تدريس أو تجارة. .

إذ قلّما يخلو يوم من واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة عليها والانقياد للحقّ في مجاريها، ويحذّرها مغبّة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرّد الآبق. فإن النفس متمرّدة بالطبع عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، قال الله تعالى:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾[1].

فهذا وما يجري مجراه هو أوّل مقام محاسبة النفس. والمحاسبة قد تكون قبل العمل لأجل التحذير كما قال الله تعالى:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[2].

وهذا التنبيه والتحذير لأجل الاحتراز من الوقوع في المعاصي في المستقبل. روي أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أن يوصيه، فقال ﷺ:

«إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيّاً فانته عنه»[3].

وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالباً على الهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر إلى العاقبة، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفّة الشهوة.

وقيل إن لقمان قال: «إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة».

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.
(٣) رواه ابن المبارك في الزهد.

«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني».

دان نفسه أي حاسب نفسه، ويوم الدين هو يوم الحساب، وقوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[1] أي لمحاسبون. وقال البعض: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر.

وهذه كلها إشارة إلى المحاسبة للمستقبل.

(١) سورة الصافات، الآية: ٥٣.

فضيلة المراقبة

إذا شرط الإنسان على نفسه ما ذكرنا فلا يبقى له إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة. فإن النفس إن تركت طغت وفسدت. فقد سأل جبرئيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله عن الإحسان فقال صلى الله عليه وآله:

«أن تعبد الله كأنك تراه»(١).

وقال صلى الله عليه وآله:

«اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

وقال الله عز وجل:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾(٣).

وقال عز إسمه:

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾(٤).

---

(١) أخرجه النسائي: ج ٨ ص ٩٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٣.
(٤) سورة العلق، الآية: ١٤.

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

وفي الحديث القدسي:

«إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذي انحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهمُّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش في مخافتي صرفت عنهم العذاب».

ويروى أن الله تعالى قال للملائكة: «أنتم موكّلون بالظواهر وأنا رقيب على البواطن».

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) سورة المعارج، الآيتان: ٣٢ و٣٣.

حقيقة المراقبة ودرجاتها

إن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمّ إليه. فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه راقب فلاناً وراعى جانبه.

والمراقبة حالة في القلب تثمرها المعرفة. وهذه الحالة هي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاته إليه وملاحظته إياه. وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأن الله مطّلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت، وإن سرّ القلب عنده مكشوف. وهذه المعرفة إذا صارت يقيناً أي أنها خلت من الشك، ثم استولت على القلب وقهرته، دفعت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرف الهمة إليه. والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون، وهم ينقسمون إلى درجتين:

١ ـ الصديقون.

٢ ـ أصحاب اليمين.

الدرجة الأولى: مراقبة الصديقين.

وهي مراقبة التعظيم والإجلال. ومعناها أن يصير القلب مستغرقاً

بملاحظة الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متّسع للالتفات إلى الغير أصلاً. وهذه مراقبة لا نطوّل النظر في التفصيل في أعمالها فإنها مقصورة على القلب.

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفّت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات. وإذا تحركت بالطاعات لم تحتج إلى تكلف لحفظها على سنن السداد، وهذا حال من صار همّه همّاً واحداً وكفاه الله تعالى سائر الهموم.

ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق لاستغراقه بمشاهدة الله، فلا يتكلم إلا معه ولا يسمع إلا منه، ومن وصل إلى هذا المقام لم يحتج بعد إلى مراقبة لسانه وجوارحه لأنها لا تتحرك إلا بما هو فيه، وهو الآن أصبح من المقربين. حتى قيل: عليك بصحبة من يذكّرك الله رؤيته، وتقع هيبته في قلبك، ويعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله. فهذه هي درجة المراقبين الذي غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم.

الدرجة الثانية: الورعون.

الورعون من أصحاب اليمين هم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظواهرهم وبواطنهم وعلى قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجمال والجلال، بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال قادرة على الالتفات إلى الأحوال والأعمال. إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة فيها.

نعم لقد غلب عليهم الحياء من الله تعالى لذا يمتنعون عن القيام بكل ما يفتضحون به في يوم القيامة، لأنهم يرون أن الله تعالى مطّلع عليهم في الدنيا فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة.

ومن كان في هذه الدرجة فإنه يحتاج إلى أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وجميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل ونظر أثناء العمل وفيه.

النظر الأول: قبل العمل:

فينظر ليرى أن فعله وخاطره هل هو لله تعالى خاصة، أم هو هوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف ليتثبت من ذلك حتى تنكشف له حقيقة الأمر بنور الحق. فإن كان لله أمضاه وإن كان لغير الله استحى من الله وكفّ نفسه عنه ولامها على رغبتها فيه وهمها به. وهذا التوقف في البداية واجب ولا محيص لأحد عنه فإن في الخبر:

«إنّه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين؛ الأول: لِمَ، والثاني: كيف، والثالث: لمن».

معنى «لم» أي لم فعلت هذا، ومعنى «كيف» أي كيف فعلت هذا ولله في كل عمل شرطاً وحكماً، ومعنى «لمن» هو المطالبة بالإخلاص، فيقال له: لمن عملت هذا؟ ألوجه الله كان خالصاً؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك؟ أم عملته عن سهو وغفلة فسقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك؟ وإن كنت تعمل لغير الله فسيقول لك الله: لقد عملت لغيري فاستوجبت مقتي وعقابي، إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفّه بنعمتي ثم تعمل لغيري، أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(١). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾[1]. ويحك أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[2]؟!

فإذا عرف العبد أنه بصدد المطالبة والتوبيخ، فليطالب نفسه قبل أن يطالب، وليعدّ أجوبة صائبة للأسئلة التي ستطرح عليه. وقد قال النبي ﷺ لمعاذ:

«إن العبد ليسأل عن كحل عينيه وعن فتّه الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه».

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يسلم في هذه المراقبة إلا مع العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكائد الشيطان. أما من لا يعرف نفسه وربّه وعدوّه وهو الشيطان، ولم يعرف ما يوافق هواه، ولم يميّز بينه وبين ما يحبّ الله تعالى ويرضاه، فإنه لا يسلم في هذه المراقبة.

فأكثر العباد يرتكبون جهلاً ما يكرهه الله عز وجل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ولكن لا تظنّن أن الجاهل بما كان يقدر على تعلمه معذور في جهله، هيهات، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم. ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم، لأنه يعلم آفات النفوس ومكائد الشيطان ومواضع الغرور فيتقيها. أما الجاهل فلا يعرفها فكيف يحترز منها؟!

لذا فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة،

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

فنعوذ بالله من الجهل والغفلة، فهما رأس كل شقاوة وأساس كل خسران.

لذا كان حكم الله تعالى على عبده أن يراقب نفسه جيداً عند همّه بالعمل فيتوقف عن الهمّ والسعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله فيمضيه، أو هو لهوى النفس فيتّقيه، ويقوم بزجر القلب عن التفكر فيه والهمّ به، فإن الخطوة الأولى نحو الباطل إذا لم تدفع أورثت الرغبة، والرغبة تورث الهمّ، والهمّ يورث القصد، والقصد يورث الفعل، والفعل يورث العقاب والمقت.

فينبغي أن تحسم مادة الشرّ من منبعه الأوّل وهو الخاطر. وإن أشكل الأمر على العبد فلم ينكشف له بعد التفكر والاستعاذة بالله من مكر الشيطان أن الفعل لله أم لهوى النفس، فعليه في هذه الحالة أن يستضيء بنور علماء الدين، والفرار من العلماء المضلّين المقبلين على الدنيا فراره من الأسد بل أشد، فقد أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام:

«يا داود لا تسأل عني عالماً أسكره حبّ الدنيا فيقطعك عني وعن محبتي، أولئك قطاع طريق عبادي».

فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدّة الشره بها والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى. فإن القلوب إنما تستضيء بالحضرة الربوبية، وكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوّها وعشق ضدها وهي شهوات الدنيا. فلتكن همّة المريد أولاً في أحكام العلم وفي طلب العالم المعرض عن الدنيا. قال رسول الله ﷺ:

«إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات»[1].

ومن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات، ولذلك قال النبيﷺ:

«من قارف ذنباً فارقه عقل لا يرجع إليه أبداً»[2].

وقال نبي الله عيسىعليه السلام:

«الأمور ثلاثة أمر استبان لك رشده فاتّبعه وأمر استبان غيّه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه»[3].

وقال النبيﷺ:

«إذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوى متّبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك».

وكان من دعاء النبيﷺ:

«اللهم إني أعوذ بك من أن أقول في الدين بغير علم».

فأعظم نعمة ينعمها الله على عباده هي العلم وكشف الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم، ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) المصدر نفسه.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[1].

أراد به تعالى العلم. وقال عز اسمه:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾[3] وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[4] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[5].

إذن النظر الأول للمراقب نظره في الهمّة والحركة أهي لله تعالى أو لهوى النفس، وقد قال النبي ﷺ:

«ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه: لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا»[6].

النظر الثاني: نظر عند الشروع في العمل:

وذلك من خلال تفقد كيفية العمل ليقضي حق الله تعالى فيه ويحسن النية في إتمامه، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه. وهذا ملازم للإنسان في جميع أحواله في الحركة والسكون. فإذا راقب الله عز

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٣) سورة الليل، الآية: ١٢.
(٤) سورة القيامة، الآية: ١٩.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩.
(٦) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

وجل في جميع ذلك قدر على عبادته بالفعل الحسن والنيّة الصادقة ومع مراعاة الآداب فيها.

فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يجلس مستقبلاً القبلة لقول النبي ﷺ:

«خير المجالس ما استقبل به القبلة»[1].

وإن نام فينام على اليد اليمنى مستقبلاً القبلة، فكل ذلك داخل في المراقبة.

والعبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات. وإن كان في معصية فمراقبته تكون بالتوبة والندم والاشتغال بالتفكر. وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب وشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها.

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليّة لا بد له من الصبر عليها أو نعمة لا بد له من الشكر عليها. بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض لله تعالى عليه، إما فعل يلزمه مباشرته، أو محظور يلزمه تركه، أو ندب حثّ عليه تعالى ليسارع به إلى معرفة الله ويسابق به عباده، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون على طاعة الله عز وجل.

ولكل واحد من هذه الأحكام حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٤ ص ٢٧٠.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

لذا ينبغي على العبد أن يتفقد نفسه في جميع أوقاته، فإذا كان فرغ من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها، فإن من فاته الربح المزيد وهو قادر على دركه فهو مغبون. وكل ذلك إنما يمكن أن يتحقق بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب للعبد فيها كيف ما انقضت في مشقة أو في رفاهية. وساعة مستقبلة لم تأتِ بعد ولا يدري العبد أيعيش إليها أم لا، ولا يدري ما يقضي الله فيها. وساعة راهنة الآن ينبغي للعبد أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربّه. فهو ابن وقته ولا يدري لعلها آخر ساعة له في هذه الدنيا وهو لا يدري، لذا ينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو عليه. قال رسول الله ﷺ:

«لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث: تزوّد لمعاد، أو مَرمَّة لمعاش، أو لذّة في غير محرّم»(١).

ثم إن هذه الساعات التي يكون العبد فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو فيها عن الذكر والتفكر وهما من أفضل الأعمال.

فإن الطعام مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكّر فيه وفطن له لكان أفضل من كثير من أعمال الجوارح. والناس فيه أقسام:

١ ـ قسم ينظرون بعين التبصّر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابه،

---

(١) رواه الصدوق في الفقيه: ص ٢٢١.

وخلق الشهوة الباعثة عليه. . .

وهذا مقام ذوي الألباب.

٢ ـ وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ملاحظين وجه الإضرار فيه، ويودّهم لو استغنوا عنه، ولكن يرون أنفسهم دائماً مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين.

٣ ـ وقسم يرون الصنعة بصمات الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فيكون مشاهدة ذلك سبباً لفتح أبواب التفكر عليهم، وهو أعلى مقامات العارفين وعلامات المحبين. فالمحب إذا رأى صنعة حبيبه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع.

وكل ما يتردّد العبد فيه هو صنع الله تعالى.

٤ ـ وقسم رابع ينظرون فيه بعين الرغبة والحرص، فيتأسفون على ما فاتهم ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم، ويعيبونه ويذمّون فاعله، فيذمون الطبيخ والطبّاخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ ولقدرة الطباخ وعلمه هو الله تعالى، وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله، ولذلك قال ﷺ:

«لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[١].

---

(١) أخرجه مسلم: ج ٧ ص ٤٥.

فضيلة المحاسبة

قال الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

ففي هذه الآية إشارة واضحة إلى المحاسبة. وعن النبي ﷺ أنه قال:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا»[2].

وقال ﷺ لرجل قال له: أوصني فقال ﷺ:

«إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه»[3].

وقال الله تعالى:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٥ ص ٤٢.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[١].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل حسناً استزاد الله تعالى وإن عمل سيئاً استغفر الله منه وتاب إليه»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أقصر نفسك عما يضرّها من قبل أن تفارقك واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإن نفسك رهينة بعملك»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«لو لم يكن للحساب مهولة إلاّ حياء للعرض على الله عز وجل وفضيحة هتك الستر على المخفيّات؛ لحقّ للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار متّصل بالتلف ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار حينئذٍ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٥٣ رقم ٢.
(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٥٥ رقم ٨.

مسؤول، قال الله عز وجل: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[1].

وروي عن يحيى بن زكريا عليه السلام:

«أنه كان يفكر في طول الليل في أمر الجنّة والنار، فيسهر ليلته ولا يأخذه النوم ثم يقول عند الصباح: اللهم أين المفرّ وأين المستقر اللهم إلا إليك»[2].

---

(١) مصباح الشريعة: الباب الرابع والثمانون.

(٢) المصدر السابق.

حقيقة المحاسبة

كما أن للعبد وقتاً في أوّل النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له وقت في آخر النهار يطالب نفسه فيه ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها.

وهذا ما يفعله التجار في الدنيا مع شركائهم في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها شيء. فإذا كانت هذه حال التجار في الدنيا فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد!؟

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة والنقصان. وكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة نهاره، والمتعامل معه نفسه الأمّارة بالسوء. فعليه أن يحاسبها على الفرائض أوّلاً، فإن أدّتها على وجهها شكر الله عز وجل عليه ورغّبها في مثله، وإن فوتتها طالبها بالقضاء، وإن أدّتها ناقصة كلّفها بالجبران بالنوافل. وإن ارتكبت معصية ما اشتغل بمعاتبتها ومعاقبتها.

فينبغي على الإنسان أن يتقي غائلة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ومكّارة. وعليه أن يطالب النفس بجميع ما فعله وتكلم به طوال

النهار، ثم يتولى بنفسه محاسبتها قبل أن يتولى غيره أمر محاسبتها في يوم القيامة. وهكذا هو الأمر أيضاً بالنسبة إلى نظره وخواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته وسكونه و. . .

إذاً ينبغي على الإنسان أن يحاسب نفسه على جميع عمره على اليوم والساعة، وعلى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة.

معاقبة النفس

إن الإنسان مهما حاسب نفسه لم تسلم عن مقارفة المعاصي والتقصير في حق الله، لذا لا ينبغي على الإنسان أن يهملها، فإنه إن أهملها سهل عليها مقارفة المعاصي وأنست بها وعسر عليها فطامها، حتى صار ذلك سبباً لهلاكها. بل ينبغي أن يعاقبها إذا خالفت حدود الله وخرجت عن ما شرط عليه نفسه.

فإذا أكل لقمة فيها شبهة عن شهوة نفس فينبغي أن يعاقب البطن بالجوع. وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر، وهكذا يعاقب كل عضو من أعضاء بدنه بمنعه عن شهواته، فهذه هي عادة سالكي طريق الآخرة.

روي أن رجلاً انطلق ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ذوقي إن عذاب جهنم أشد حراً، وبينما هو كذلك إذ أبصر النبيﷺ في ظلّ شجرة فأتاه وقال له: غلبتني نفسي يا رسول الله! فقال له النبيﷺ:

«ألم يكن لك بدّ من الذي صنعته، أما لقد فتحت لقد فتحت لك أبواب السماء، وباهى الله عز وجل بك الملائكة، ثم قال لأصحابه: تزودوا من

أخيكم. فجعل الرجل يقول له: يا فلان ادع لي، يا فلان ادع لي، فقال النبي ﷺ: عمّهم. فقال الرجل: اللهم اجعل التقوى زادهم، واجمع على الهدى أمرهم. فجعل النبي ﷺ يقول: اللهم سدّده، فقال الرجل: اللهم اجعل الجنة مآبهم»[1].

والعجب من الإنسان كيف يعاقب عبده وولده وأهله على ما يصدر منهم من سوء الخلق والتقصير خوفاً من أن لو تجاوز عنهم لخرج أمرهم من يده وبغوا عليه، وفي المقابل يهمل نفسه وهي أعظم عداوة له وضراوة، وأشد طغياناً من طغيان أهله، فإن غايتهم أن يشوشوا عليه معيشة الدنيا، ولو عقل لعلم أن العيش عيش الآخرة، وأن نعيم الجنة هو النعيم المقيم الذي لا آخر له، وأن النفس الأمارة هي التي تنغّص على الإنسان عيش الآخرة، لذا فهي أولى بالمعاقبة.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس. ورواه الصدوق أيضاً.

المجاهدة

إذا رأى الإنسان عند المحاسبة أن نفسه قد قارفت معصية ما فينبغي عليه أن يعاقبها، وإن رآها تتوانى عن شيء من الفضائل أو وردٍ من الأورد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، وإلزامها بمجموعة من الوظائف جبراً لما فات منه، وتداركاً لما فرط منه. فهكذا كان يعمل عمّال الله تعالى. فكان بعضهم إذا فاتته صلاة جماعة أحيى تلك الليلة، وكان بعضهم يعاقب نفسه بصوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«طوبى لعبد جاهد لله نفسه هواه، ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله، ومن جاوز عقله نفسه الأمارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله فقد فاز فوزاً عظيماً. ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى. وليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله والخشوع والجوع والظمأ بالنهار

والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً، وإن عاش واستقام أدّاه عاقبته إلى الرضوان الأكبر. قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وإذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد فوبّخ نفسك ولمها وعيّرها تحثيثاً على الازدياد عليه، واجعل لها زماماً من الأمر وعناناً من النهي، وسقها كالرّائض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواتها إلا وقد صحّح أوّلها وآخرها. وكان رسول الله ﷺ يصلي حتى تتورّم قدماه ويقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً».

أراد أن تعتبر به أمّته فلا يغفلوا عن الاجتهاد والتعبّد والرياضة بحال. الا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها واستضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة، ولو قطّعت إرباً إرباً.

فما أعرض من أعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق»[١].

أما من لم تطاوعه نفسه على المجاهدة والمرابطة، فعلاجها أن يسمعها الإنسان ما ورد في الأخبار من المجاهدة والمجاهدين في سبيل الله.

---

(١) مصباح الشريعة: الباب ٨٠.

ومن أنفع سبل العلاج هو صحبة عبد من عباد الله مجتهد في مجاهدة نفسه فيلاحظ أحواله ويقتدي به. وإن لم يجد في عباد الله من يجتهد في عبادة الله ومجاهدة نفسه فليعدل إلى سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم، ونعيمهم لا ينقطع. فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم، فتتمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدّرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه فنعوذ بالله منه.

وسنورد الآن من أوصاف المجاهدين وفضائلهم ما يحرّك رغبة المريدين في الاجتهاد اقتداءً بهم فقد قال النبي ﷺ:

«رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى».

وقال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(١).

قيل في معناه: إنهم يعملون ما عملوا من أعمال البرّ ويخافون أن لا يقبل منهم، وأن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله. قال النبي ﷺ:

«طوبى لمن طال عمره وحسن عمله»(٢).

ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته:

«ما بال عبادي مجتهدين، فيقولون: إلهنا خوّفتهم شيئاً فخافوه وشوّقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير.

فيقول الله تعالى: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشدّ اجتهاداً».

فأهل المجاهدة هم طائفة من الناس لا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل إليهم، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر عنهم. وهي أهون في أعينهم من التراب الذي تطؤونه بأرجلكم. إن الواحد منهم ليعيش عمره كلّه وما طوي له ثوب، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط.

وإذا أدركتهم وجدتهم عاملين بكتاب الله وسنّة نبيهﷺ. إذا جنّهم الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم من النار. إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يتقبلها. وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم. حتى سئل ما بال المجتهدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقيل: إنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره.

قال أحدهم: مررت بصومعة راهب فناديته: يا راهب، فلم يجبني ثم ناديته ثانية فلم يجب فناديته ثالثة فأشرف عليّ وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظّمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذلّ لعزّته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر في حسابه وعقابه. فنهاره صائم وليله قائم، قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذاك هو الراهب، أما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلاّ أعقرهم.

فقلت: يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه؟

فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها محل المعاصي والذنوب، فالعاقل من رمى بها وتاب إلى الله من ذنبه وأقبل إلى ما يقرّبه من ربّه.

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: صليت خلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام الفجر فلما سلّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلّب يده وهو يقول:

«والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وما أرى اليوم شيئاً يشبههم، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجّداً وقياماً، يتلون كتاب الله عز وجل، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، فكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح وهملت أعينهم حتى ابتلّ ثيابهم».

وقال عليه السلام أيضاً:

«سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين»(١).

وقال بعض الحكماء: إن لله عز وجل عباداً أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلّموا الخلق والأمر إليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتاً للحكمة وتوابيت للعظمة وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون مدبرون وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بحجب الغيوب، ثم ترجع ومعها طرائف

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٣٥.

من لطيف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً. وهذه طريقة لا يبلغها الإنسان بالتكلف، وإنما هي فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهكذا كانت سيرة الصالحين في مجاهدة النفس ومراقبتها. فإذا تمرّدت نفسك وامتنعت عن المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء الصالحين، فقد عزّ في هذا العصر وجود أمثالهم. فإن قدرت على مشاهدتهم فاقتدِ بهم، وإن عجزت عن ذلك فلا تغفل عن سماع أحوالهم. وخيّر نفسك بين الإقتداء بهم والكون معهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر وبين الاقتداء بالغافلين من أهل عصرك.

فعليك إذاً إن كنت من المجاهدين لأنفسهم أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين حتى ينبعث نشاطك ويزيد حرصك. فقد روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا حلّت العتمة قامت على سطح لها وشدّت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك، ثم أقبلت على صلاتها فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ أو رددتها عليّ فأعزّي؟! وعزّتك لو انتهرتني عن بابك ما برحته لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

وقال أحدهم: خرجت من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ ويبكي، فلما قرب مني السواد إذا هو امرأة عليها جبّة صوف وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، قلت: رجلٌ غريب،

فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها فقالت: ما الذي يبكيك؟ قلت: وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه، قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله والصادق لا يبكي؟ قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة للقلب، فسكتّ متعجّباً من قولها. فإياك أيها العبد أن تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله عز وجل.

فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك فقالت: إنّما تيسّر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان، وإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا منك، فوافقهم فيما هم فيه، وإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها: أرأيت يا نفس لو هجم سيل جارف يريد أن يغرق أهل البلد، فلم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنت أن تفرّي من السيل وتركبي سفينة تنجيك من الغرق فهل يختلج من نفسك أن المصيبة إذا عمّت طابت فتفعلين كما يفعلون؟! أم تتركين موافقتهم وتستجهليهم في صنعهم، وتأخذين حذرك؟!

إن الكفار لم يهلكوا إلا بموافقتهم لأهل زمانهم حيث قالوا:

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1].

فعليك إذاً إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك أن تعمد إلى الاجتهاد، وإن استعصت فلا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها فعساها تنزجر عن طغيانها.

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

المعاتبة

أيها الإنسان إن أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمّارة بالسوء ميّالة إلى الشرّ فرّارة من الخير. وأُمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، وبمنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذّاتها.

فإن أهملتها شردت وجمحت فلم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوّة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفل عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك. لقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام:

«يا بن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني».

وقال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

فعليك أيها الإنسان أن تذكر نفسك فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والفطنة وأنتِ أشد الناس غباوة وحمقا. أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداهما عما قريب، فما بالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟! فعساك تختطفين اليوم أو غداً!!

فلربما ترى نفسك أن الموت بعيدٌ فقل لها: أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ولا مواعدة! فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبرين في قوله تعالى:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(١).

وعاتب نفسك وقل لها: ويحك يا نفس تجرأت على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك!

وإنت كنت تعلمين أنه مطّلع عليك فما أشد وقاحتك وأقلّ حياءك!!

فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله تعالى وغضبه وشديد عقابه، أفتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات، هيهات، جربي نفسك فاحتبسي ساعة في الشمس أو قرّبي إصبعك من النار ليتبيّن لك قدر طاقتك! أم تغترين بكرم الله عز وجل وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك، فما لك لا تعوّلين على كرم الله في مهمات الدنيا؟ أفتحسبين أن الله كريم

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١ ـ ٣.

في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنّة الله لا تبديل لها وأنّ رب الدنيا والآخرة واحد وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك وكثرة دعاويك الباطلة، فإنك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيّدك ومولاك:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1].

لقد تكفل الله لك بأمر الدنيا وصرفك عن السعي لها فكذّبته بأفعالك، ووكّل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور، فما هذه علامات الإيمان! ويحك كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلتِّ وتخلّصت. هيهات أتحسبين أن تتركي سدى؟ ألم تكوني نطفة من مني يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوّى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى. فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين ممَّ خلقك الله، من نطفة خلقك فقدّرك ثم السبيل يسّرك، ثم أماتك فأقبرك، أفتكذبينه في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾، فإن لم تكوني مكذّبة فما بالك لا تأخذين حذرك؟!

فالعجب أنه لو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك لنزعته في الحال من غير مطالبته ببرهان ودليل. أكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء أقلّ عندك من قول الصبي؟ أو صار حرّ جهنم وصديدها وأغلالها وأنكالها وزقومها وأفاعيها أحقر عندك وأهون من لدغ عقرب لا تحسين بألمه إلا لأيام معدودة؟

فإن كنت قد عرفت كل ذلك وآمنت به فمالك تسوّفين العمل

---

(١) سورة هود، الآية: ٦.

والموت لك بالمرصاد، ولعلّه يختطفك من غير مهل فبماذا أمنت استعجال الأجل؟! وهب أنك وعدت الإمهال ألف سنة أفتظنين أنّ من لا يعلف الدابة يفلح ويقدر على اجتياز العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك.

ثم هب أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلى، فلعلّ اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين به. فإن أوحي إليك بالإمهال فما المانع لك من المبادرة وما الباعث لك على التسويف، هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهوتك، لما فيه من التعب والشقّة؟

أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات، إن هذا يوم لم يخلقه الله ولن يخلقه. فالجنة محفوفة بالمكارم ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس.

أما تتأملين يا نفس منذ كم وأن تعدين وتقولين: غداً وغداً، أما علمت أن ما تعجزين عنه اليوم أنت أعجز منه غداً، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي عزم الرجل على قلعها ولما عجز عن ذلك لضعفه أخرها سنة أخرى مع العلم أن طول المدّة يزيد من قوة الشجرة ورسوخها ويزيد الرجل ضعفاً ووهناً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في المشيب. وليت شعري أألم الصبر عن الشهوات أعظم شدّة وأطول مدّة أم ألم النار في دركات جهنّم؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟

فما أراك يا نفس تتوانين إلا لكفر خفيّ أو لحمق جلي. أما الكفر الخفي فهو لضعف إيمانك بيوم الحساب وعظم قدر الثواب والعقاب.

وأما الحمق الجلي فلاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه. مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة العيش وكسب المال، بل تتوصلين إلى غرضك بجميع الحيل، وبهذا الجهل استحقيت لقب الحماقة. وقد قال النبيﷺ:

«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني».

ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرّنك الحياة الدنيا ولا يغرنّك بالله الغرور. فانظري لنفسك ولا تضيّعي أوقاتك فإن الأنفاس معدودة، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة.

ما أراك يا نفس إلا ألفت الدنيا وأنست بها فعسُر عليك مفارقتها. أما تعلمين أن الدنيا دار ممر لا دار مقرّ ولذلك قال سيد البشر محمدﷺ:

«إن روح القدس نفث في روعي أحبب ما أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميّت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به».

أما علمت يا نفس أن كل من التفت إلى ملاذ الدنيا وأنس بها عظمت حسرته عند مفارقتها. أوما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا، وكيف أورث أرضهم وديارهم أعداءهم؟!

أما ترين كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون، ويؤمّلون ما لا يدركون.

فعجباً لك يا نفس كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية، لعلك أسكرك حب الجاه. أو لا تعلمين أنه لا معنى للجاه إلا ميل قلوب الناس إليك، فاحسبي أن كلّ من على وجه الأرض سجدوا لك وأطاعوك، أفلا تعرفين أن بعد خمسين سنة لن يبقى لا أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممّن عبدك وسجد لك، وأنه سيأتي زمان لن يبقى فيه ذكرك وذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك، فهل تحسّين منهم من أحد أو تسمعين لهم ركزاً؟! فكيف تبيعين ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة؟!..

فيا حسرة عليك يا نفس إذا خسرت الدنيا والدين. فبادري فقد أشرفت على الهلاك، واقترب الموت وورد النذير، فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك؟

ما لك إلا أيام معدودة هي زادك وبضاعتك إن اتّجرت فيها وقد ضيّعت أكثرها. ولو بكيت بقية عمرك على ما ضيّعت منها لكنت مقصّرة، فكيف إذا ضيّعت بقية العمر. أما تعلمين أن الموت موعدك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود أنيسك والفزع الأكبر بين يديك!؟.

ويحك أما تستحين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله بالعظائم، أفتستحين من الخلق ولا تستحين من الخالق. أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل، تدعين إلى الله وأنت منه فارّة وتذكرين الله وأنت له ناسية.

ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك. فاحذري يا مسكينة يوماً آلى الله تعالى

فيه على نفسه أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سرّه وعلانيته. فانظري بأي بدن تقفين بين يدي الجبار وبأي لسان تجيبين؟!

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك لها اضطراراً ورفضك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً. ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي وينهى الناس ولا ينتهي. واعلمي أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدلٌ.

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار، وما أراك بها راضية ولا لها واعية. فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجّد والقيام، فإن لم تزل معرضة فبالمواظبة على الصيام، فإن لم تزل على حالها فبقلّة المخالطة والكلام، فإن لم تزل كما هي فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام. فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك واقفل عليه وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه. فوطني نفسك على النار فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلها وخلق النار وخلق لها أهلها، وكل ميسّر لما خلق له.

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك، ولا تقنطي من رحمة الله فالقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله منها، فلا سبيل إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اغترار وليس برجاء. فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها، وهل تسمح عيناك بدمعة، فإن سمحت فقد بقي فيكِ موضع للرجاء فواظبي على النيَاحة والبكاء واستغيثي بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأدمني على الاستغاثة ولا تملّي، لعلّ الله يرحم ضعفك ويغيثك فإن مصيبتك قد عظمت وبليّتك

قد تفاقمت وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحيل وزاحت عنك العلل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا منجا ولا ملجأ إلا إلى الله.

فافزعي إليه بالتضرع واجزعي في تضرّعك على قدر عظم جرمك وكثرة ذنوبك فإنه يرحم المتضرّع الذليل ويغيث الطالب المتلهّف ويجيب دعوة المضطرّ الذليل. وقد أصبحت يا نفس إليه مضطرّة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدّت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل، ولم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ. فتوجهي إلى خالقك واطلبي منه فهو الكريم واسأليه فهو الجواد واستغيثي به فهو البر الرؤوف، وهو ذو الرحمة الواسعة والكرم الفائض والعفو الشامل. واقتد بأبيك آدم حيث روي؛ أنه لمّا أهبطه الله عز وجل إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة، فاطلع الله عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكّس الرأس، فأوحى الله تعالى إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أرى بك، قال: يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي وأُخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي؟

فأوحى الله عز وجل إليه يا آدم: ألم أصطفك لنفسي، وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذّرتك سخطي؟

ألم أخلقك بيدي ونفخت فيك روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري ونسيت عهدي وتعرّضت لسخطي، فوعزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني ويسبّحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام.

التوبة

مقدمة

إن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستّار العيوب وعلاّم الغيوب هي مبدأ طريق السالكين ورأس مال الفائزين وأوّل إقدام المريدين ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء عند المقربين.

ولقد قلع آدم من قبل سنّ الندم، وتندم على ما سبق منه وتقدم، فمن اتخذه قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلّت به القدم. فالتجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرّد للشرّ سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشرّ ضرورة الآدميين.

فالمتجرّد للخير ملك مقرّب عند الملك الديّان، والمتجرّد للشرّ شيطان، والمتلافي للشرّ بالرجوع إلى الخير إنسان. فقد ازدوجت في طينة الإنسان شائبتان، واصطحبت فيه سجيتان، وكل عبد مصحّح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان. فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصرّ على الطغيان مسجّل على نفسه بنسب الشيطان، وتصحيح النسب بالتجرّد لمحض الخير كالملائكة فخارج عن حيّز الإمكان، لأن الشرّ معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه منه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم.

فالإحراق بالنار ضروري لتطهير جوهر الإنسان من خبائث الشيطان. وإليك الآن اختيار أهون الشرين والمبادرة إلى أخفّ النارين قبل أن يطوى بساط الاختيار ويساق إلى دار الاضطرار، إما إلى الجنّة أو إلى النار.

فإذا كان هذا هو موقع التوبة من الدين كان لا بد من تقديمها وشرح حقيقتها وبيان شروطها وأسبابها وثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسّرة لها.

حقيقة التوبة

إن التوبة عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل..

ـ أما العلم؛ فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب. فإذا عرف ذلك معرفة يقينية، تألم القلب لفوات المحبوب، لأن القلب إذا شعر بفوات محبوبه تألم. فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمّى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً. وإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى عليه، انبعثت في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى الفعل، لها تعلق بالحال والماضي والمستقبل. أما تعلقها بالحال فبترك الذنب الذي كان ملابساً له، واما بالمستقبل فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، واما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات، والمقصود بالعلم هنا هو الإيمان واليقين. فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة. واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب.

فيثمر نور الإيمان إذا أشرق على القلب نار الندم فيتألم به القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه. فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة يطلق اسم التوبة على مجموعها.

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، فيكون العلم كالسابق والمقدمة، ويكون الترك كالثمرة والتابع المتأخر. وبهذا الاعتبار قال النبي ﷺ:

«الندم توبة»[1].

إذ لا يخلو الندم عن علم كان سبباً له وعن عزم يتبعه ويتلوه.

---

(١) الحاكم: ج ٤ ص ٢٤٣.

وجوب التوبة وفضلها

إن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار[1] والآيات، كقوله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[3].

وهذا الأمر واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة.

فالسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في كل خطوة يخطوها، وإما بصير يُهدى إلى أوّل الطريق ثم يهتدي هو بنفسه إلى آخره.

وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون إلى قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه، فيحتاج إلى أن يسمع في كل خطوة نصاً من كتاب الله أو سنة رسوله، وربما يعوزه ذلك فيتحيّر، فسير هذا وإن طال عمره وعظم جدُّه مختصر وخطاه قاصرة. وإلى سعيد شرح الله

(١) راجع الدر المنثور: ج ٥ ص ٤٤. والكافي: ج ٢ ص ٤٣١ باب التوبة.
(٢) سورة النور، الآية: ٣١.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.

صدره للإسلام فهو على نور من ربّه يتنبّه بأدنى إشارة لسلوك طرق معوصة وقطع عقبات متعبة، فيشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان، وهو لشدة نور باطنه يكتفي بأدنى بيان، وكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مسّته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، ومثل هذا الإنسان لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة.

ومن هذه حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فإنه ينظر أولاً بنور بصيرته إلى معنى التوبة وماهيتها وإلى معنى وجوبها، ثم يقوم فيجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوته لها. وذلك لأنه يعلم أن معنى الواجب هو ما كان واجباً في الوصول إلى السعادة الأبدية والنجاة من الهلاك الأبدي، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى.

فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى السعادة الأبدية وعلم أنه لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى، وأن كل محجوب عنه يشقى لا محالة، ومحول بينه وبين ما يشتهيه، ومحترق بنار الفراق ونار جهنم.

وعلم أيضاً أنه لا مبعّد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والإنكباب على حب ما لا بد من فراقه قطعاً.

وعلم أنه لا مقرّب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والإقبال بالكامل على الله تعالى طلباً للأنس به بدوام ذكره، ولمحبته بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته.

وعلم أيضاً أن الذنوب ـ التي هي إعراض عن الله تعالى واتباع

للشياطين المبعدين عن حضرته تعالى ـ سبب لكونه محجوباً عن الله وبعيداً عنه.

لذلك لا يشك أن ترك طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يكون الترك بالعلم والندم والعزم.

فإنه ما لم يعلم أن الذنوب هي السبب في البعد عن المحبوب لم يتندّم ولم يتوجّع، وما لم يتوجّع فلن يرجع. ومعنى الرجوع الترك والعزم. فلا يشكُّ في أن المعاني الثلاثة ضرورية لأجل الوصول إلى المحبوب. وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة.

أما من لم يكن له حظ من هذا المقام الرفيع المرتفعة ذروته عن حدود أكثر الخلق، ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك، فيلاحظ فيه قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ والصالحين، حيث قال الله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وهذا أمر لعموم المؤمنين، وقال عزّ اسمه أيضاً:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

ومعنى النصوح؛ الخالص لله الخالي عن الشوائب. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

وقال رسول الله ﷺ:

«التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1].

ويروى أنه لما تاب الله على آدم عليه السلام هنّأته الملائكة فهبط عليه جبرئيل وميكائيل فقالا: يا آدم قرّت عينك بتوبة الله عز وجل عليك. فقال آدم عليه السلام:

يا جبرئيل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورّثت ذرّيتك التعب والنصب، وورّثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كتلبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب. يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب.

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«إن الله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها»[3].

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٢٠٠.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٥ رقم ٨.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٦ رقم ١٣.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾:

«هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً، فقيل: وأيّنا لم يعد؟ قال: يا فلان إن الله يحب من عباده المفتّن التواب»(١).

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه، قيل: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»(٢).

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزئ»(٣).

إذاً فالتوبة واجبة، إذ معناها العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعّدات من الله وهذا داخل في وجوب الإيمان، ولكن قد يغفل الإنسان عنها، ومعنى العلم هنا هو إزالة هذه الغفلة. ومن معانيها أيضاً ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في المستقبل وتدارك ما سبق من التقصير وذلك كله لا شك في وجوبه أيضاً.

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٢ رقم ٤.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٦ رقم ١٢.
(٣) المصدر السابق: رقم ١٣.

والتندم على ما سبق والتحزّن عليه أيضاً واجب وهو روح التوبة.

وهو نوع ألم يحصل في القلب عقيب معرفة ما فات من العمر وما ضاع في سخط الله.

إذاً فالتوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة: العلم والندم والترك.

وجوب المسارعة إلى التوبة

لا شك في وجوب التوبة على الفور لأن المعاصي مهلكات الإيمان وآفاته. فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، ومن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان. وهو المراد بقوله ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١).

فالنبي ﷺ لم يرد بهذا الحديث نفي الإيمان الذي يرجع إلى العلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله فإن ذلك لا ينافي الزنى والمعاصي وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنى مبعداً عن الله وموجباً لمقته عز وجل.

فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان باباً واحداً بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. فمن ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصّر في الأعمال فإنه قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحرّكة للإيمان، كمجيء لحظة الموت وقدوم ملك الموت ووروده.

---

(١) الترمذي: ج ١٠ ص ٩١.

فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لن يثبت أمام عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت. وعندها يخاف على هذا الإنسان سوء الخاتمة. إلا من سقي بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات حتى ترسخ فيه الإيمان وثبت.

وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كما أنك مؤمن، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر: أنا شجرة وأنت شجرة، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقلع أصولك وتتناثر أوراقك، وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار. وهذا الأمر يظهر عند الخاتمة، وإنما تقطعت نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلّون.

فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب معصيته فهو كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرّة. فالمعاصي بالنسبة للإيمان كالمأكولات المضرّة بالنسبة للأبدان، فهي لا تزال تجتمع في الباطن فتغيّر مزاج الأخلاط وهو - لا يشعر إلى أن يفسد المزاج فيمرض ثم يموت، وكذلك هي المعاصي.

فإن كان يجب على الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية ترك السموم وما يضرّه في المأكولات الفاسدة، فكذلك الخائف من الهلاك الأبدي الأولى به أن يتجنب ما يضره من المعاصي والذنوب، وأن يرجع عنها بالتدارك الممكن ما بقي للتدارك مهلة وعمر. فإن المخوف من هذا السمّ فوات الآخرة التي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب الأليم.

فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح

الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه اختيار الأطباء، ولا ينفع بعده الاحتماء، فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين، فتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾(١).

ولا يغرّنك لفظ الإيمان فتقول إن المراد به الكافرون، فقد بيّنا لك أن الإيمان بضع وسبعون باباً، وأنّ الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن. فالمحجوب عن الإيمان الذي هو بمرتبة الشعب والفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو الأصل. فلا بقاء للأصل دون الفروع ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا أن وجود الفرع وبقاءه يستدعي وجود الأصل، أما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، ولكن بقاؤه يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل. فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الأصل والفرع فلا يستغني أحدهما عن الآخر. وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خيرٌ من وجودها. ولذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر.

---

(١) سورة يس، الآيات: ٨ ـ ١٠.

التوبة واجبة على الجميع

إن التوبة واجبة على الجميع وقد دلّ على ذلك قوله تعالى:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾(١).

فعمّم الخطاب ونور البصيرة أيضاً يرشد إليه، إذ ان معنى التوبة هو الرجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى المقرّب إلى الشيطان. ولا يتصوّر ذلك إلا من العاقل.

ولا تكتمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل إلى إغواء الإنسان. وكمال العقل إنما يكون عند مقاربة الأربعين، وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين. والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة، وإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة. فإنهما ضدان والتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة. وإذا غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة.

وإذا كانت الشهوات تكتمل في الصبا والشباب أي قبل تمام العقل، فقد سبق جند الشيطان واستولوا على المكان ووقع في القلب

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

أنس بهم. ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج، فإن لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب إلى الشيطان وأنجز اللعين موعوده حيث قال:

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وأما لو قوي العقل وكمل كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات وردّ الطبع بالقهر، وغلبة العبادات، ولا معنى للتوبة إلا هذا؛ وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره (حافظه) الشيطان، إلى طريق الله تعالى.

وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله، وغريزته التي هي عدّة للشيطان متقدّمة على غريزته التي هي عدّة الملائكة، فكان الرجوع عما سبق إليه بمساعدة الشهوات ضرورياً في حق كل إنسان.

إذن فكل من بلغ وهو كافر وجاهل فعليه التوبة من كفره وجهله، أما من بلغ وهو مسلم تبعاً لأبويه ولكن كان غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة عن غفلته من خلال تفهم معنى الإسلام، فإن إسلام أبويه لا يغني عنه شيئاً ما لم يسلم هو بنفسه. فإن أدرك ذلك فعليه الرجوع عن عاداته واسترساله وراء الشهوات بالرجوع إلى حدود الله وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه.

أما سبب وجوب التوبة دائماً وفي كل حال فلأن الإنسان لا يخلو عن معصية بجوارحه، وإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح لم يخلُ عن الهمّ بالذنوب بالقلب، وإن خلا عن الهمّ فلا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٢.

يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، وإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص. ولا يتصوّر خلوّ آدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون في المقادير. أما الأصل فلا بد منه ولهذا قال النبي ﷺ:

«إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم والليلة سبعين مرّة»(١).

ولذلك أكرمه الله تعالى فقال:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٢).

ولكن ينبغي أن نلتفت إلى أن ذنب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ليس كذنوبنا، بل هو ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات مما يؤدي إلى حرمانهم من زيادة الأجر والثواب بسبب ذلك.

عن علي بن رئاب قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ أرأيت ما أصاب علياً عليه السلام وأهل بيته من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون؟ فقال عليه السلام: إن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرّة من غير ذنب، إن الله يخصّ أولياءه بالمصائب

(١) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ٧٢.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢.

ليأجرهم عليها من غير ذنب»[1].

وعن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى:

«﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾، فقال عليه السلام: يا أبا محمد تسلّطه والله من المؤمن على بدنه ولا يسلّط على دينه، وقد سلّط على أيوب فشوّه خلقه ولم يسلّط على دينه وقد يسلط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلّط على دينهم»[2].

ولا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهمم والخواطر نقص، وأن الكمال يكمن في الخلو عنه، وأن القصور في معرفة كنه جلال الله نقص، وأنه كلما زادت المعرفة زاد الكمال، وأن الانتقال من النقص إلى الكمال رجوع، والرجوع توبة.

ولسائل أن يسأل أن كل هذه الأمور فضائل لافرائض فكيف صارت التوبة عن هذه الأمور واجبة في كل حال، والحال أن إدراك الكمال غير واجب في الشرع؟

وفي الجواب نقول: إنه قد سبق وقلنا إن الإنسان لا يخلو في مبدأ فطرته من اتباع الشهوات، وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة وكمالها في تدارك كل ما مضى. فإن كل شهوة يتبعها الإنسان تؤدي إلى ظلمة في القلب، وإذا تراكمت ظلمة الشهوات صارت رينا

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤٥٠ رقم ٢.
(٢) الكافي: ج ٨ ص ٢٨٨.

كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً كما قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1].

فإذا تراكم الرّين صار طبعاً فيطبع الرين على قلبه كالخبث على وجه المرآة الذي إذا طال زمانه صار لا يقبل التصقيل بعده. ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب.

ولا ترتفع ظلمة المعاصي واتباع الشهوات عن القلب إلا بنور الطاعات والعبادات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«اتبع السيئة الحسنة تمحها»[2].

إذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.

أما القول إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كمال فلا بد أن نعلم أن للواجب معنيين:

أحدهما: ما يدخل في فتوى الشرع وفيه يشترك كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم.

الآخر: هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من ربّ العالمين والمقام المحمود بين الصديقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة إذا أراد الإنسان أن يصل إليه.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٢) رواه الترمذي.

كما يقال: إن العين والأذن واليد والرجل شرط في وجود الإنسان أي شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى الدرجات العلى في الدنيا، أما من قنع بأصل الحياة ورضي بأن يكون كلحم على وضم (خشبة الجزار)، وكخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ويد ورجل.

فأصل الواجبات الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة، وأصل النجاة كأصل الحياة، وما وراء أصل النجاة من السعادات التي بها تتهيأ النجاة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تتهيأ الحياة، وفيه سعى الأنبياء والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، وعليه كان حرصهم وحوله كان طوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكامل حتى انتهى عيسى صلوات الله عليه إلى أن يتوسّد حجراً فجاءه الشيطان وقال:

أما كنت تركت الدنيا للآخرة؟ فقال: نعم وما الذي حدث؟ فقال: توسّدك لهذا الحجر تنعّم بالدنيا، فلم لا تضع رأسك على الأرض! فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعّم.

أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمّى واجباً في فتاوى العامة. فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله، وإياك أن تغرّك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرّة أن يغرّك بالله الغرور. فهذه أسرار من استنشق مبادئ روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح لازم للعبد السالك في كل نفس من أنفاسه، ولو عمر عمر نوح. وان ذلك واجب على الفور من غير مهلة. ولقد صدق من قال: لو لم يبك

العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله. وإنما قال ذلك لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة فضاعت منه بغير فائدة بكى عليها وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد.

وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا خلف لها ولا مبدّل منها وهي صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وشقاوة الأبد. وأي جوهر أنفس من هذا، فإذا ضيّعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، وإن صرفتها في المعصية فقد هلكت هلاكاً فاحشاً. وإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك. ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة لأن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته: «والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا». فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه، ولكل مصاب مصيبته وقد وقع اليأس عن التدارك.

قال بعض العارفين: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين، فيظهر الحزن والأسف والحسرة على العبد ويتمنى لو يضمّ إلى تلك الساعة ساعة أُخرى ليتدارك تفريطه فلا يجد إليها سبيلاً وهو ما يظهر من معنى قوله تعالى:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[1].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

وإليه الإشارة أيضاً بقوله عز وجل:

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾(١).

وقيل إن الأجل القريب الذي يطلبه هو قول العبد لملك الموت عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي وأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي، فيقول له ملك الموت: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول العبد: أخّرني ساعة، فيقول ملك الموت: فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة ويغرغر بروحه، فيتجرّع غصّة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه جراء صدمات تلك الأهوال. فإذا زهقت نفسه وكانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد وهو حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقاوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب وهذا هو سوء الخاتمة.

ولمثل هذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾(٢).

بل التوبة كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ

---

(١) سورة المنافقون، الآيتان: ١٠ و١١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.

يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾(١).

ومعناه عن قريب عهد بالخطيئة وذلك بأن يتندّم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرّين على القلب فلا يقبل المحو بعد ذلك ولذلك قال النبيﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تمحها».

ولذلك أيضاً قال لقمان لابنه:

«يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو، والثاني: أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو».

ولذلك ورد في الخبر: «إن أكثر صياح أهل النار من التسويف». فما هلك من هلك إلا بالتسويف فيكون تسويده للقلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الأجل فيأتي الله بقلب غير سليم، ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده، والعمر أمانة الله عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان الأمانة ولم يتدارك خيانته فهو في خطر. قال بعض العارفين: إن لله تعالى على عبده سرّين يسرُّهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن أمّه فيقول له: عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وإئتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقاني. والثاني: عند خروج روحه فيقول له: عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1].

وبقوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨.

تقبل التوبة إذا كانت صحيحة

إذا صار معنى القبول مفهوماً لم يشك بعدها ان كل توبة صحيحة فهي مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدّون من أنوار القرآن قد علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله. وعلموا أن القلب في الأصل خلق سليماً، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا تجتمع ظلمة المعاصي مع نور الحسنات كما لا يجتمع ظلام الليل مع نور النهار.

فكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لكي يكون لباسه، فكذلك القلب المظلم لا يقبله الله تعالى ليكون في جواره.

إن استعمال القلب في الشهوات يوسخه، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم هو الذي ينظفه ويطهره ويزكيه. وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول.

فليس على العبد سوى التزكية والتطهير، أما القبول فهو مبذول

وقد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مردّ له وهو المسمّى فلاحاً في قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾(1).

وقوله عز وجل:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾(2).

ومن لم يعرف أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات، فيكون أثر المعاصي في القلب الظلمة، وأثر الطاعات النور، فكأنه لم يعرف من الدين إلا قشوره، ولم يعلق بقلبه إلا رسمه، أما قلبه فهو في غفلة عن حقيقة الدين، بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه، ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل، أعني به قلبه.

فمن يتوهم أن التوبة يمكن أن تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس يمكن أن تطلع ولا يزول الظلام. نعم إذا اقتصر على التوبة باللسان فهو لم يأتِ بحقيقة التوبة وهذا غير بعيد، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله بالكامل. وهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكنّا نعضد جناحه بنقل بعض الآيات والروايات. فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به. قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾(3).

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: ١.
(2) سورة الشمس، الآية: ٩.
(3) سورة الشورى، الآية: ٢٥.

وقال عز وجل:

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسيء اللّيل إلى النهار ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[2].

وقال ﷺ:

«لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم»[3].

وقال ﷺ أيضاً:

«إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة، قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينه تائباً منه فاراً، فما زال حتى يدخل الجنة»[4].

وقال النبي ﷺ:

«كفارة الذنب الندامة»[5].

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢.

(٢) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٠٠.

(٣) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢٤٨.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب.

وقال ﷺ:

«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1].

ويروى:

«إن الله عز وجل لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال: وعزّتك لا خرجتُ من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا حجبتُ عنه التوبة ما دام فيه الروح»[2].

وعن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان. قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة، فقال عليه السلام: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟ قلت: فإنه فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله تعالى عليه بالمغفرة، وان الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله»[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢٥٠.

(٢) أخرجه الحاكم: ج ٤ ص ٢١٦.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٤ رقم ٦.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وان المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وأن الكافر لينساه من ساعته»(١).

وفي رواية أخرى: «وإنما يذكّره ليغفر له»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب عليّ» إلا غفرها الله له ولا خير فيمن يقارف في كل يوم أكثر من أربعين كبيرة»(٣).

وعنه عليه السلام قال:

«إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة. قيل: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال: نعم، إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة»(٤).

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٧ رقم ٣.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٨ رقم ٦.
(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٣٨ رقم ٧.
(٤) الكافي: ج ٢ ص ٦٢٦ رقم ٣.

وعنه عليه السلام قال:

«إنه والله ما خرج عبد من ذنب إلا بالإقرار»[1].

وعنه عليه السلام قال:

«من أذنب ذنباً فعلم أن الله مطّلع عليه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، غفر له وإن لم يستغفر»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال: إن يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»[3].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«إن آدم قال: يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان وأجريته مني مجرى الدم فاجعل لي شيئاً، فقال: يا آدم جعلت لك أنّ من همّ من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة، ومن همّ منهم

(1) الكافي: ج ٢ ص ٤٢٧ رقم ٤.
(2) الكافي: ج ٢ ص ٤٢٧ رقم ٧.
(3) الكافي: ج ٢ ص ٤٤٠ رقم ٢.

بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشراً، قال: يا ربي زدني، قال: جعلت لك أنّ من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يا ربي زدني، قال: جعلت لهم التوبة (أو بسطت لهم التوبة) حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا ربّ حسبي»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال أيضاً:

«إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة»[2].

عن معاوية بن وهب قال:

«خرجنا إلى مكّة ومعنا شيخ متعبّد متألّه لا يعرف هذا الأمر (يعني الإمامة والولاية لأهل البيت) يتمّ الصلاة في الطريق ومعه ابن أخ له مسلم، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه: لو عرضت هذا الأمر على عمك لعلّ الله أن يخلّصه، فقال كلهم: دعوا الشيخ يموت على حاله فإنه حسن الهيئة، فلم يصبر ابن أخيه حتى قال له: يا عمّ ان الناس ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا نفراً يسيراً، وكان لعلي بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكان بعد رسول الله صلى الله عليه وآله الحق والطاعة له، قال:

---

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٠ رقم ١.

(٢) المصدر السابق: رقم ٣.

فتنفّس الشيخ وشهق وقال: أنا على هذا، وخرجت نفسه. فدخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فعرض عليّ بن السريّ هذا الكلام عليه فقال: هو رجل من أهل الجنّة، فقال له ابن السريّ: إنه لم يعرف شيئاً من ذلك غير ساعته تلك؟ قال: فتريدون منه ماذا؟ قد دخل والله الجنّة»[1].

(١) الكافي: ج ٢، ص ٤٤٠ رقم ٤.

أمهات الذنوب منابعها وأقسامها

إن مثارات الذنوب تنحصر في أربع صفات:

١ ـ صفات ربوبية.

٢ ـ صفات شيطانية.

٣ ـ صفات بهيمية.

٤ ـ صفات سبعية.

وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى لكل واحد من هذه الأخلاط أثراً.

ـ أما ما يقتضيه النزوع إلى الصفات الربوبية فمثل: الكبر والفخر وحب المدح والثناء والعزّ والغنى وحبّ البقاء وطلب الاستعلاء حتى كأنه يريد أن يقول: أنا ربكم الأعلى، وهذا أيضاً تتشعب منه جملة من الكبائر التي غفل عنها أكثر الخلق ولم يعدوها ذنوباً وهي من المهلكات العظيمة.

ـ الثانية: هي الصفات الشيطانية التي تتشعب منها ذنوب كثيرة منها الحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر، وفيه أيضاً يدخل الغشّ والنفاق والدعوة إلى البدع والضلالة.

ـ الثالثة: هي الصفات البهيمية، ومنها يتشعّب الشَّرَه والكَلَب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنه يتشعّب الزنى واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات.

ـ الرابعة: الصفة السبعية ومنها يتشعّب الغضب والحقد والتهجّم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال. ويتفرع عن هذه الصفة جملة من الذنوب.. وهذه الصفات لها تدريج، فالصفة البهيمة هي التي تغلب أولاً ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية وفي النهاية تغلب الصفات الربوبية وهي الفخر والعزّ والعلوّ وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق.

فهذه هي أمهات الذنوب ومنابعها. ثم تتفجّر الذنوب على الجوارح من هذه المنابع، فبعضها في القلب خاصة كالفكر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس وبعضها على العين والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن.

والذنوب بشكل عام تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله، وإلى ما يتعلق بالعبد خاصة كتركه الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتله النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراض، وكل ما يؤخذ من حقوق الغير.

وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ، وما بين العبد وبين الله إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر:

«الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك. فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد

بينهم وبين الله، وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك، وأما الديوان الذي لا يترك فمظالم العباد»[1].

أي لا بد وأن يطالب بها حتى يتفصّى عنها.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«الذنوب ثلاثة: مذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه، قيل: يا أمير المؤمنين فبيّنها لنا، قال: نعم، أما الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله تعالى أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرتين. وأما الذنب الذي لا يغفره الله فظلم العباد بعضهم لبعض، إن الله إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال: وعزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كفّ بكفّ ولو مسحة بكف، ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجماء[2]، فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض حتى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثم يبعثهم الله للحساب. وأما الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة ونخاف العقاب»[3].

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم من حديث عائشة.

(٢) الجماء: الشاة التي لا قرن لها.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٤٣.

الذنوب الكبيرة والذنوب الصغيرة

إن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر. فعن الإمام الصادق عليه السلام قال في قوله عز وجل:

«﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ قال: الكبائر التي أوجب الله عليها النار»[1].

وعنه عليه السلام أنه سئل عن الكبائر فقال:

«هنّ في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين وأكل الربا بعد البيّنة وأكل مال اليتيم ظلماً والفرار من الزحف والتعرّب بعد الهجرة، قال الراوي قلت: وهذا أكبر المعاصي؟ قال: نعم، قلت: فأكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة؟ قال: ترك الصلاة، قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر؟ فقال: أي شيء

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٧٦ رقم ١.

أوّل ما قلت لك؟ قال: قلت الكفر قال: فإن تارك الصلاة كافر»[1].

وعن أبي الحسن عليه السلام أنه سئل عن الكبائر كم هي وما هي؟ فكتب:

«الكبائر من اجتنب ما وعد الله عليه النار كفّر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً، والسبع الموجبات[2]: قتل النفس الحرام، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرّب بعد الهجرة، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف»[3].

وعن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال:

«سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام فلما سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ ثم أمسك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله، فقال: يا عمرو أكبر الكبائر الإشراك بالله، يقول الله: ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وبعده الإياس من روح الله لأن الله يقول:

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٧٨.

(٢) عطف على «ما وعد الله»، أي من اجتنب السبع الموجبات للنار كفر عنه سيئاته، من باب عطف الخاص على العام لأن الكبائر أكثر منها.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٢٧٦.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثم الأمن لمكر الله، إن الله يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ومنها عقوق الوالدين لأن الله جعل العاق جباراً شقياً[1]، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق لأن الله يقول: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وقذف المحصنة لأن الله يقول: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وأكل مال اليتيم لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ والفرار من الزحف، لأن الله يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وأكل الربا لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾، والسحر لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ والزنى لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ واليمين الغموس[2] الفاجرة لأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

(٢) اليمين الغموس: هي التي يحق بها باطلاً أو يبطل بها حقاً. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ والغلول لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ومنع الزكاة المفروضة لأن الله يقول: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وشهادة الزور وكتمان الشهادة لأن الله يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وشرب الخمر لأن الله نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان، وترك الصلاة متعمداً أو شيئاً مما فرض الله ولأن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله» ونقض العهد وقطيعة الرحم لأن الله يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾».

قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم»(١).

فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع، وذلك لأن الكبيرة والصغيرة من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه.

فقطع يد المسلم كبيرة بالنسبة إلى ضربه، وصغيرة بالنسبة إلى قتله. نعم يمكن أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله اسم الكبيرة، وله أن يطلق على ما أوجب عليه الحد، وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب النهي عنه. نعم من المهمات أن نعلم معنى قول الله تعالى:

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٨٥.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وقول رسول الله ﷺ:

«الصلوات الخمس كفّارات لما بينهنّ إلا الكبائر».

فإن هذا إثبات لحكم الكبائر. والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشارع إلى ما يعلم استعظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه، فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع طلب ما لا يمكن. فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع عن رسول الله ﷺ. وقد وردت عنه عليه السلام في بعض الألفاظ: «ثلاث من الكبائر» وفي بعضها «سبع من الكبائر» ثم ورد: «إن السبّتين بالسبّة الواحدة من الكبائر» وهو خارج عن السبع والثلاث، لذلك علم أنه ﷺ لم يقصد به العدد والحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعدّده الشرع.

وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهمت ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها.

نعم لنا سبيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق، أما أعيانها فتعرفها بالظن والتقريب. ويمكننا أن نعرف أكبر الكبائر أما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته.

وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنواع البصائر أن مقصود الشرائع كلها إنما هو سياقة الخلق إلى جوار الله وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ورسله وكتبه وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[1].

أي ليكونوا عبيداً لي. ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربّه بالربوبية، ونفسه بالعبودية. فلا بد وأن يعرف نفسه وربّه وهذا هو المقصود الأصلي من بعثة الأنبياء. ولكن هذا لا يتمّ إلا في الحياة الدنيا وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «الدنيا مزرعة الآخرة»[2].

فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنه وسيلة إليه. والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئان: النفوس والأموال. فكل ما يسدّ باب معرفة الله فهو أكبر الكبائر، ويليه ما يسد باب حياة النفوس، ويلي ذلك ما يسدّ باب المعايش التي بها حياة النفوس.

فهذه ثلاث مراتب، فحفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضروري في مقصود الشرائع كلها. فلا يجوز أن يبعث الله تعالى نبياً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم بإهلاك النفوس والأموال.

فتحصّل من هذا؛ أن الكبائر على ثلاث مراتب:

١ - المرتبة الأولى: ما يمنع من معرفة الله ومعرفة رسله. وهو الكفر ولا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل والوسيلة لرفع هذا الحجاب والتقرب إلى الله هي العلم والمعرفة، فقرب العبد من ربه بقدر معرفته به وبعده بقدر جهله به عز وجل، ويتلو الجهل الذي يسمى كفراً أيضاً الأمن من مكر الله والقنوط

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس.

من رحمته فإن هذا أيضاً عين الجهل. أما من عرف الله فلا يتصوّر أن يكون آمناً ولا آيساً من رحمة الله.

ويتلو هذه الرتبة البدع كلها المتعلقة بذات الله سبحانه وبصفاته وأفعاله وشرائعه وبأوامره ونواهيه.

٢ ـ المرتبة الثانية: النفوس، إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله. فقتل النفس لا محالة من الكبائر وإن كان دون الكفر، ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضي إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض. ويقع في هذه الرتبة تحريم الزنى فإنه وإن كان لا يلغي أصل الوجود إلا انه يشوّش الأنساب ويبطل التوارث وجملة من الأمور التي لا ينتظم العيش إلا بها.

٣ ـ المرتبة الثالثة: الأموال؛ فإنها معائش الخلق فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما. بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس. إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها، وإن أكلت أمكن تغريمها، فليس يعظم الأمر فيها. نعم إذا جرى تناولها بحيث يعسر تداركها فإنها تصبح من الكبائر وذلك بأربعة طرق:

ـ الأول: السرقة وهي خفية، فإنه إذا لم يُطَّلع عليه فكيف يُتدارك.

ـ الثاني: أكل مال اليتيم.

ـ الثالث: شهادة الزور.

ـ الرابع: أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس.

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون من الكبائر وإن لم يوجب الشرع الحدّ في بعضها ولكن كثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا والدين تأثيرها.

ويمكن أن يعد كل ما يجب الحدّ به كبيرة بناءً على حديث الرسول الأكرمﷺ، فتكون بهذا الاعتبار الكبيرة هي كل ما لا تكفّره الصلوات الخمس بحكم الشرع.

الحكمة من ابهام حدّ الكبائر

إن كل ما لا يتعلّق به حكم الدنيا يجوز أن يتطرّق إليه الإبهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، بل كل موجبات الحدود معلومة بأساميها كالسرقة والزنى وغيرهما، وإنما حكم الكبيرة ان الصلوات الخمس لا تكفّرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر فلا يتجرّؤون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس، وكذلك اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر بموجب قوله تعالى:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفّر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة كمن يتمكن من امرأة فيكفّ عنها نفسه ويقتصر على النظر أو اللمس، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر، وهذا هو معنى تكفيره.

أما لو كان عنيناً أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة والعجز أو كان قادراً ولكن امتنع لخوف فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً. ومن لا

يشتهي الخمر بطبعه بحيث إنه لو أبيح له لما شربه فاجتنابه أيضاً لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار. نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ويطلقها في السماع، فمجاهدته نفسه بالكف عن الخمر ربما يمحو عن قلبه ظلمة معصية السماع، وكل هذه أحكام أخروية يجوز أن تبقى بعضها في محل الشك وتكون من المتشابهات ولا يعرف تفصيلها إلا بالنص، ولم يرد بعد نص ولا حدّ جامع، بل وردت ألفاظ مختلفة في حدها.

فقد روي عن النبيﷺ أنه قال:

«الصلاة إلى الصلاة كفّارة، ورمضان إلى رمضان كفّارة إلا من ثلاث: الإشراك بالله وترك السنّة ونكث الصفقة. قيل: وما ترك السنّة؟ فقال: الخروج من الجماعة. ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله»(١).

فهذه وأمثالها من الألفاظ لا تحيط بالعدد كلّه ولا تدل على حدّ جامع، فيبقى الأمر لا محالة مبهماً.

---

(١) أخرجه الحاكم: ج ٤ ص ٢٩٥.

مراتب الحسنات والسيئات

إن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم الغيب والملكوت. والمقصود بالدنيا حالة الإنسان قبل الموت وبالآخرة حالته بعد الموت.

فدنياك وآخرتك هي صفاتك وأحوالك، يُسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخرة آخرة. ونحن الآن نتكلم عن الدنيا وهي عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة، وهي عالم الملكوت، ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

وهذا لأن عالم الملك نوم بالنسبة إلى عالم الملكوت ولذلك قال الرسول ﷺ:

«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[2].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

(٢) قال العراقي هذا الحديث إنما يعزى إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وما سيكون في اليقظة لا يتبين للإنسان في حالة النوم إلا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير، وكذلك فإنه ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبيّن في نوم الدنيا إلا في كسوة الأمثال. والمقصود من كسوة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة.

- جاء رجل إلى ابن سيرين وقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء؟ فقال: إنك مؤذّن تؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر، فقال: صدقت.

- وجاءه آخر فقال: رأيت كأني أصب الزّيت في الزيتون، فقال: إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتّش عن حالها فإنها أمك لأن الزيتون أصل الزيت فهو ردٌّ إلى الأصل، فنظر فإذا جاريته كانت أمّه وقد سبيت في صغره.

- وقال له آخر: رأيت كأني أقلّد الدرّ في أعناق الخنازير؟ فقال: إنك تعلم الحكمة غير أهلها، فكان كما قال.

فالتعبير من أوّله إلى آخره مثال يعرفك طريق ضرب الأمثال. وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقاً وإن نظر إلى صورته كان كاذباً. فالمؤذّن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً وإن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ قد صدر منه روح الختم ومعناه وهو «المنع» الذي يراد به الختم.

وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلّفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم، وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن

المثل صادق. ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»[1].

وهو من المثال الذي لا يعقله إلا العالمون. أما الجاهل فلا يجاوز حدّه ظاهر المثال لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلاً كما يسمى تفسير ما يُرى من الأمثلة في النوم تعبيراً، فيقول إن لله يداً وإصبعاً تعالى الله عن ذلك. وكذلك في قول النبي ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[2]. فإن الجاهل لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيقول إن الله تعالى مثل ذلك، تعالى الله عن قوله علواً كبيراً.

ومن ههنا زلّ من زلّ في الصفات الإلهية. وكذلك قد يَرِد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذّب بها الملحد لجمود نظره على ظاهر المثال، كقول الرسول الأكرم ﷺ:

«يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح»[3].

فيثور الملحد ويكذّب به. ولكن الله تعالى عزلَ هؤلاء الحمقى عن معرفة أسرار الله تعالى فقال:

﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

والناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتاً لا حصر له. ولكن يمكن أن الناس في الآخرة بتقسيم آخر فنقول إنهم على أربعة أقسام:

---

(١) أخرجه الحاكم: ج ٤ ص ٣٢١.
(٢) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٤٩.
(٣) أخرجه البخاري ومسلم: ج ٨ ص ١٥٢.

١ ـ هالكون.

٢ ـ معذبون.

٣ ـ ناجون.

٤ ـ فائزون.

المرتبة الأولى: الهالكون:

ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله. وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين والمتجرّدين للدنيا المكذبين بالله وبرسله وبكتبه، فإن السعادة الأخروية تكمن في القرب من الله والنظر إلى وجهه الكريم، وهذا لا ينال إلا بالمعرفة التي يعبّر عنها بالإيمان والتصديق، والجاحدون هم المنكرون، والمكذّبون هم الآيسون من رحمة الله أبد الاباد. وهم الذين يكذّبون برب العالمين وبأنبيائه المرسلين وهم عن ربهم يومئذٍ محجوبون لا محالة، وكل محجوب فهو لا محالة محترق في نار جهنم التي هي عبارة عن نار الفراق. ولذلك قال العارفون: ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للحور العين وإنما مطلبنا اللقاء ومهربنا من الحجاب فقط. وقالوا: إن من يعبد الله بعوض فهو لئيم لأنه يعبده لطلب جنته أو للخوف من ناره، أما العارف فيعبده لذاته ولا يطلب إلا ذاته فقط، أما الحور والفواكه فلا يشتهيها، وأما النار فلا يتّقيها. لأن نار الفراق إذا استولت على قلب العارف غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام، وألم الجسم يستحقر إذا ما قيس مع ألم الفؤاد. ولذلك قيل:

ففي فؤاد المحبّ نار جوى أحرّ نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير في عالم الدنيا، فقد رُئي من غلب عليه الوجد كيف عدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم دون أن يحسّ به لفرط غلبة ما في قلبه من الوجد. ورُئي كيف يستولي الغضب على الغضبان في القتال فتصيبه الجراحات وهو لا يشعر بها لأن الغضب نار في القلب. قال رسول الله ﷺ:

«الغضب قطعة من النار».

واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشدّ يبطل الإحساس بالأضعف.

إذاً من استرقّته صفات البهائم والسباع فهو محجوب، أما الصفات الملكوتية فلا يناسبها ولا يلذّها إلا القرب من ربّ العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب. وكما أن الذوق لا يكون إلا في اللسان والسمع في الآذان كذلك هذه الصفات الأخروية لا تكون إلا في القلب.

فمن لا قلب له فهو فاقد لهذا الحس، وليس لكل إنسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾(١).

وليس المقصود من القلب هذا اللحم الذي تكتنفه عظام الصدر، بل هو السرّ الذي هو من عالم الأمر. وهذا اللحم الذي هو من عالم الخلق فهو عرشه والصدر كرسيه وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعاً. وذلك السرّ هو الذي قال الله تعالى فيه:

---

(١) سورة ق، الآية: ٣٧.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[1].

وهو الملك والأمير لأن بين عالم الأمر وبين عالم الخلق ترتيباً، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق، وهي اللطيفة التي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، والتي من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه. وعند ذلك يشمّ العبد مبادي روائح المعنى المطوي تحت قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته» وينظر بعين الرحمة إلى الجاحدين على ظاهر لفظه وإلى المتعسفين في طرق تأويله، وإن كانت رحمته للجاحد على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسّف في التأويل، لأن الرحمة على قدر المصيبة ومصيبة المتعسفين أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر. فالحقيقة فضل الله يؤتيها من يشاء والله ذو الفضل العظيم. وهي حكمته يخصّ بها من يريد: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[2].

وعليه فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليست إلا للجهّال المكذبين.

الرتبة الثانية: المعذبون.

وهي رتبة من تحلّى بأصل الإيمان ولكن قصّر في الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه فقط لا بالحقيقة. بل إن معنى قولك: «لا إله إلا الله» هو نفسه معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾[3] الذي يعني أن تذر بالكامل كل ما غير الله، وهو نفسه معنى قوله تعالى أيضاً:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾[1].

والصراط المستقيم الذي لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر وأحدّ من السيف، لذا لا ينفك بشرٌ عن الميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير، إذ لا يخلو الإنسان عن اتباع الهوى ولو في فعل يسير، وهذا قادح في كمال التوحيد ومقتضٍ لا محالة إلى نقصان درجة القرب بقدر ميله عن الصراط المستقيم. ومع كل نقصان يوجد ناران؛ نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جهنم كما وصفها القرآن.

أما شدّة العذاب وخفته وتفاوته إنما تكون بحسب أمرين:

الأول: قوة الإيمان وضعفه.

الثاني: كثرة اتباع الهوى وقلّته.

ولأنه لا يخلو بشر في غالب الأمر مس واحد من الأمرين قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[2].

وقد اختلف في شأن مدة الورود بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قيل إن بعض الناس يجوزون على النار كبرق خاطف فلا يكون له فيها لبث. أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكبرها، واختلاف أنواعه باختلاف أنواع السيئات. وقد انكشف ذلك لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) سورة فصّلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٧١ و٧٢.

﴿رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1].

وبقوله عز وجل:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾[2].

وبقوله:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾[3].

وبقوله:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[4].

إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون الثواب والعقاب جزاء على الأعمال، وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه. وجانب العفو والرحمة أرجح إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ: «سبقت رحمتي غضبي»[5].

وقال تعالى:

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[6].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الزلزال، الآيتان: ٧ و٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٧.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٥) أخرجه البخاري: ج ٩ ص ١٦٦.

(٦) سورة النساء، الآية: ٤٠.

فكل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض أي الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط. وهو إن حوسب رجّحت حسناته على سيئاته، إذ ورد في الأخبار: «إن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارة لما بينهنّ». وكذلك اجتناب الكبائر فإنه مكفّر للصغائر بحكم نص القرآن.

أما التحاق الإنسان بأصحاب اليمين أو المقربين ونزوله في جنات عدن أو في الفردوس الأعلى، فذلك يتبع أصناف الإيمان لأن الإيمان إيمانان:

- إيمان تقليدي: كإيمان العوام الذين يصدّقون بما يسمعون ويستمرّون عليه.

- إيمان كشفي: يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتى ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى، وهم على غاية القرب من الملأ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف، فمنهم السابقون ومنهم من هم دونهم، وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى. ودرجات العارفين في المعرفة لا حصر لها إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكن، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق، وإنما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم وبقدر ما سبق لهم من الله في الأزل. فالطريق إلى الله لا نهاية لمنازله، والسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم.

أما المؤمن إيماناً تقليدياً فهو من أصحاب اليمين ودرجته دون درجة المقربين، وهم أيضاً على درجات، فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته أدنى درجات المقربين.

هذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدّى الفرائض كلها.

أما من ارتكب كبيرة ما أو عدة كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحة قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب هذه الأعمال، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وإن مات قبل التوبة فهذا أمره مخطر عند الموت، إذ ربما يكون موته على حالة الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختم له بسوء الخاتمة، لا سيما إن كان إيمانه تقليدياً، لأن التقليد قابل للانحلال بأدنى شك وخيال، فتكون كثرة مدة عذابه بحسب إصراره شدة وضعفاً. وعند انقضاء مدّة العقاب ينزل البله المقلّدون في درجات أصحاب اليمين، فقد جاء في الخبر:

«آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف»(١).

ولا يخرج من النار إلا الموحِّد، وليس المقصود بالتوحيد أن يقول بلسانه: «لا إله إلا الله»، فإن اللسان في عالم المُلك والشهادة وهو لا ينفع إلا في عالم الدنيا فيدفع به الإنسان السيف عن رقبته، وأيدي الغانمين عن ماله. ومدّة بقاء الرقبة والمال مدّة الحياة في عالم المُلك، وعندما لا يبقى مال ولا رقبة فلا يعد للقول باللسان نفع.

وإنما كمال التوحيد أن لا يرى الأمور إلا من الله، وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه منه لأنه لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبّب الأسباب فقط.

والتوحيد على درجات، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال، ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرّة.

---

(١) اخرجه مسلم: ج ١ ص ١١٩.

وأكثر ما يُدخل الموحّدين النار مظالم العباد. فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك. أما بقية السيئات فيعفى عنها. ففي الأثر أن العبد ليوقف بين يدي الله عز وجل وله من الحسنات أمثال الجبال، وهي لو سلمت له لكان من أهل الجنة، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا، فينقص من حسناته حتى لا يبقى له حسنة، فتقول الملائكة: يا ربنا قد فنيت حسناته وبقي هناك طالبون كثر فيقال: القوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكاً إلى النار. وكما يهلك هو بسيئة غيره عن طريق القصاص، كذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم، إذ تنتقل إليه كعوض عما ظلمه به.

فالنجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها، ويعبر عن هذه الأسباب الخفية المفضية إلى النجاة بالعفو والرضا، وعما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام، ووراء ذلك سرّ المشيئة الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها. لذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد إنما يكون على التقوى والتقوى محلّها القلب وهو أخفى من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره. ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي يقتضي فيه العفو ولا غضب إلا بسبب باطني يقتضي البعد عن الله، ولولا ذلك لم يكن العفو والعفو جزاء على الأعمال والأوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً ولو لم يكن عدلاً لم يصح قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

ولا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾.

فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي سيرى، وكل نفس بما كسبت رهينة، ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقاً لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(١).

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر، إذ البصر يمكن الغلط فيه لأنه قد يرى البعيد قريباً والكبير صغيراً، أما مشاهدة القلب فلا يمكن الغلط فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾(٢).

الرتبة الثالثة: الناجون:

والمقصود من النجاة؛ السلامة فقط دون السعادة والفوز. والناجون هم قوم لم يخدموا فيخلع عنهم ولم يقصروا فيعذّبوا. ويشبه أن يكون هذه حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة، فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية، فلا وسيلة تقرّبهم ولا جناية تبعّدهم، فما هم من أهل الجنّة ولا هم من أهل النار، بل ينزلون في منزلة بين منزلتين ومقام بين المقامين. وهذه الطائفة من الناس موجودة ومعلومة يقيناً من خلال الآيات والأخبار. روي أن النبي ﷺ قد سئل عن الأطفال فقال:

«الله أعلم بما كانوا عاملين»(٣).

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة النجم، الآية: ١١.

(٣) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٨.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عمّن مات في الفترة وعمّن لم يدرك الحنث والمعتوه فقال عليه السلام:

«يحتج الله عليهم، يرفع لهم ناراً فيقول لهم: ادخلوها، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن أبى قال: ها أنتم قد أمرتكم فعصيتموني»[1].

وفي رواية أخرى:

«فمن سبق له في علم الله عز وجل أن يكون سعيداً ألقى نفسه فيها فكانت عليه برداً وسلاماً، ومن سبق له في علم الله أن يكون شقيًّا امتنع فلم يلق نفسه في النار فيأمر الله به إلى النار»[2].

الرتبة الرابعة: الفائزون:

وهم العارفون دون المقلّدين وهم المقربون السابقون. فإن المقلّد وإن كان له فوز بمقام في الجنّة إلا أنه من أصحاب اليمين، أما أصحاب هذه المرتبة (الفائزون) فهم المقرّبون. وما يلقاه هؤلاء يجاوز حدّ البيان، ويمكن أن نكتفي بما ذكره القرآن إذ ليس بعد بيان الله بيان حيث قال عزّ اسمه:

﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[3].

وفي الحديث القدسي أنه عز وجل قال:

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٩.
(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٨.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

«أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم. أما الحور والقصور والفواكه واللبن والعسل والخمر والحليّ والأساور، فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أعطوها لم يقنعوا بها، فهم لا يطلبون إلا لذّة النظر إلى وجه الله الكريم، وهي غاية السعادات ونهاية اللذات. ولذلك لما قيل لرابعة العدوية: كيف رغبتك في الجنة؟ فقالت: الجار ثم الدار.

فهؤلاء قوم شغلهم حب ربّ الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل ما سواه حتى أنفسهم، ومثالهم مثال العاشق الفاني بمعشوقه، الذي لا همّ له سوى النظر إلى وجهه والتفكر فيه، حتى يغفل عن نفسه حال الاستغراق فلا يعد يحسّ بما يصيبه في بدنه. ويعبر عن هذه الحالة بالفناء، فيقال إنه فني عن نفسه بمعنى صار مستغرقاً بغيره، وصارت همومه هماً واحداً وهو محبوبه، فلم يبق فيه متّسع لغير محبوبه.

وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصوّر أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأكمه والأصم إلى أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره.

فالدنيا حجاب وبرفعه ينكشف الغطاء وعند ذلك يدرك العارف ذوق الحياة الطيبة: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٣٢٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

أسباب صيرورة الذنوب الصغيرة كبيرة

إن الذنوب الصغيرة قد تكبر بأسباب منها:

١ ـ **الإصرار والمواظبة**: ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار. فكبيرة واحدة منصرمة لا يتبعها مثلها العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها. ومثال ذلك قطرات الماء التي تقع على الحجر على التوالي فتؤثر فيه، ونفس ذلك المقدار من الماء لو صبّ على الحجر دفعة واحدة لم يؤثر فيه. ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«خير الأعمال أدومها وإن قلّ»[1].

فالأشياء تعرف بأضدادها، فإذا كان العمل النافع هو الدائم وإن قلّ، فإن العمل الكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره. وكذلك فإن القليل من السيئات إذا دامت عظم تأثيرها في إظلام القلب، أما الكبيرة فنادراً ما يتصوّر حدوثها بغتة من غير أن تكون مسبوقة بالصغائر.

فقلّ من يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقل ما

(١) صحيح مسلم والبخاري.

يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة. فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة فلا يتصور حدوث الكبائر بغتة ومن دون مقدمات.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار»[1].

وعنه عليه السلام قال:

«لا والله لا يقبل شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه»[2].

وعن الباقر عليه السلام قال في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3]:

«الإصرار أن يذنب الذّنب فلا يستغفر ولا يحدِّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار»[4].

٢ ـ **استصغار الذنب**: فإن كل ذنب يستعظمه العبد في نفسه يصغر عند الله، وكل ذنب يستصغره في نفسه يكبر عند الله. لأن استعظامه للذنب يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وهذا النفور يمنع عن الإلفة بالذنب، مما يؤدي إلى تأثر القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، لذلك لا يؤاخذ القلب بما يجري عليه

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٨٨ رقم ١.
(٢) المصدر السابق: رقم ٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٤) الكافي: ج ٢ ص ٢٨٨ رقم ٢.

حال الغفلة، فالقلب لا يتأثر بما يجري عليه حال الغفلة، وقد جاء في الخبر:

«المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه والمنافق يرى ذنبه كذباب مرَّ على أنفه فأطاره»[1].

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه:

«لا تنظر إلى قلّة الهديّة، وانظر إلى عظم مُهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها».

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«اتقوا المحقّرات من الذنوب فإنها لا تغفر، قلت: وما المحقرات؟ قال: الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن غير ذلك»[2].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام قال:

«لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلّوا قليل الذنوب فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السرّ حتى تعطوا من أنفسكم النصف»[3].

---

(١) البخاري: ج ٨ ص ٨٢.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ٢٨٧ رقم ١.
(٣) الكافي: ج ٢ ص ٢٨٧ رقم ٢.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم ويبغض العبد ان يستخفّ بالجرم اليسير»[1].

٣ ـ السرور بالصغيرة والتبجح بها:

فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتى ان المذنبين من يتبجح بذنبه لشدّة فرحه بمقارفته إياه.

فإن الذنوب مهلكات وإذا ارتكبها العبد وظفر به الشيطان فينبغي أن يتأسف على غلبة عدوّه عليه، وبعده من الله تعالى.

٤ ـ التهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه:

فإنه لا يعلم إنما يمهله مقتاً ليزداد إثماً، فيظن أن تمكّنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[2].

٥ ـ أن يظهر الذنب بعد إتيانه في مشهد غيره:

فإن ذلك منه جناية على ستر الله الذي سدله عليه وتحريك للرغبة في الشرّ عند الآخرين، وهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فتغلّظت به. وفي الخبر:

«كل الناس معافى إلا المجاهدين، يبيت أحدهم

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤٢٧ رقم ٦.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٨.

على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف الله عليه ويتحدّث بذنبه»[1].

هذا لأن من صفات الله ونعمه. أن يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، والإظهار كفران بهذه النعمة. ولذلك قال الله تعالى:
﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾[2].

وعن مولانا الإمام الرضا عليه السلام قال:

«قال رسول الله ﷺ: المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول والمستتر بها مغفور له»[3].

٦ ـ أن يكون المذنب عالماً يقتدى به:

فإذا أذنب العالم المقتدى به بذنب كبر هذا الذنب، كلبس العالم للحرير والذهب وأخذه مال الشبهة من السلاطين ودخوله عليهم وتودّده إليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللسان في الأعراض وتعديه باللّسان في المناظرة.

واشتغاله في العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل والمناظرة.. فهذه ذنوب يتّبع العالم بها فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم أمداً طويلاً، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه. ففي الخبر:

---

(١) أخرجه البخاري والطبراني.
(٢) سورة التوبة، الآية: ٦٧.
(٣) الكافي: ج ٢ ص ٤٢٩ رقم ٢.

«من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً»[1].

وقال الله تعالى:

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾[2].

والآثار هي ما يلحق الأعمال بعد انقضائها. ومثل زلّة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها. وفي الإسرائيليات، ان عالماً كان يضلّ الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل في الإصلاح دهراً، فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان أن قل له: إن ذنبك لو كان بينك وبيني لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النار.

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر لذا عليهم وظيفتان:

الأولى: ترك الذنب.

الثانية إخفاء الذنب.

وكما أن أوزارهم تتضاعف على الذنوب، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات. فإن ترك العالم التجمل والميل إلى الدنيا وقنع منها باليسير فتبعه على ذلك العوام واقتدوا به كان له مثل ثوابهم. وإن مال العالم إلى التجمّل والدنيا مالت طباع من دونه إلى التشبّه به، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام فيكون هو السبب في جميع ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله.

(٢) سورة يس، الآية: ١٢.

شروط التوبة وعلاماتها

ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلة بينه وبين محبوبه. ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من بيانها:

١ ـ العلم:

أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي.

٢ ـ الندم:

وهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب. وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدموع وطول البكاء. فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزّته طالت عليه مصيبته وبكاؤه، وأي عزيز أعزّ عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدلّ على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من الله ورسوله؟

وألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع. ففي الخبر:

«جالسوا التوابين فإن رحمة الله إلى النادم أقرب»[1].

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها، فيستبدل الميل بالكراهية، والرغبة بالنفرة. وفي الإسرائيليات:

«إن الله سبحانه قال لبعض أنبيائه وقد سأله النبي قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم ير أثر قبول توبته فقال: وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السماوات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه».

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال لقائل بحضرته: «استغفر الله»:

«ثكلتك أمّك أتدري ما الاستغفار، إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستّة معان أولها الندم على مامضى، والثاني العزم على ترك العود عليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها تؤدي حقها، والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة.

بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[1].

فالتوبة لا تصح ولا تصدق إلا بمثل هذه العلامات، ولما عزّت هذه العلامات عزت التوبة والتائبون، فلا يرى إلا معرضاً عن الله ومتهاوناً بالذنوب مصراً عليها. فهذه علامات تمام الندم وشروطه وينبغي أن تدوم إلى حين الموت. وينبغي أن يجد التائب هذه المرارة من جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل. وليس ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنى بل من مخالفته أمر الله، وهذا جار في كل ذنب.

٣ ـ القصد:

وهو إرادة التدارك. وهذا يوجب على التائب في الحال ترك كل محظور وأداء كل فرض، وفي الماضي بتدارك ما فرّط، وبالمستقبل من خلال دوام الطاعة وترك المعصية إلى حين بلوغ الموت.

وشرط صحته فيما يتعلق بالماضي أن يردّ فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسنّ أو بالاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهراً شهراً ويوماً يوماً وينظر في الطاعات ليرى ما قصّر فيه منها وإلى المعاصي ليرى ما قارفه منها.

وينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته حتى يتطلع إلى جميع معاصيه صغيرها وكبيرها، ثم ينظر فيما كان من

---

(١) نهج البلاغة: المختار من الحكم رقم ٤١٧.

ذلك بينه وبين الله من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع جنابة ومسّ مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر وسماع ملاه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة منها تكون بالندم والتحسّر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدّة ويطلب لكل معصية منها حسنَة تناسبها، فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيئات متأسياً بقول الرسولﷺ:

«اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها».

وبقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].

وإن عدّ جميع المعاصي غير ممكن، وإنما المقصود سلوك طريق المضادة والمخالفة، فإن المرض يعالج بضدّه، وكل ظلمة وجدت في القلب بسبب المعصية لا يمحوها إلا نور يأتي من حسنة تضاد تلك المعصية، والمتضادات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة ولا بالبرودة.

ومما يدل على أن الشيء يكفّر بضدّه أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والإلف بها والحنين إليها، لذا فلا جرم أن كل أذى يصيب المسلم فينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم. قال النبيﷺ:

«من الذنوب ذنوب لا يكفّرها إلا الهموم»[2].

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط.

وفي الحديث:

«إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفّرها أدخل الله عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه»[1].

ويقال: إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه هو ظلمة الذنوب وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطّلع.

وروي:

«إن جبرائيل دخل على يوسف في السجن فقال له: كيف تركت الشيخ الكئيب فقال: قد حزن عليك حزن مائة ثكلى؟ قال: فما له عند الله؟ فقال: أجر مائة شهيد».

إذاً فإن الهموم أيضاً مكفّرات حقوق الله. وهذا حكم الذنوب التي بينه وبين الله.

أما مظالم العباد، ففيها معصية وجناية على حق الله، لأن الله نهى عن ظلم العباد. فما يتعلق منه بحق الله يتداركه بالندم والتحسّر وترك مثله في المستقبل والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها. أما حقوق الناس فيقابل إيذاؤه لهم بالإحسان إليهم، ويكفر عن غصب أموالهم بالتصدّق بملكه الحلال، ويكفّر عن تناوله لأعراض الناس بالغيبة والقدح بالثناء وإظهار ما يعرفه من خصال الخير...

فمظالم العباد إما في النفوس أو الأموال أو الأعراض، أو القلب (أي الإيذاء المحض).

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ١٩٢.

أما النفوس كالقتل الخطأ وتوبته بتسليم الدية وإيصالها إلى المستحق ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب الخمر أو سرق أو قطع الطريق وغيرها من الأمور التي لا يلزمه في التوبة منها أن يفضح نفسه ويهتك ستره.

وإن كانت المظلمة مالاً تناوله بغصب وخيانة أو غبن في معاملة، فكل ذلك يجب أن يفتش عن صاحبه لا من حين بلوغه بل من أوّل مدّة وجوده، ومن لم يفعل كان ظالماً مطالباً بظلمه في يوم القيامة، فعلى الإنسان أن يحاسب نفسه على الحبّات والذرّات من أول يوم في حياته قبل أن يحاسب في القيامة. فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه. فليكتب أسماء أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم وليستحلّهم وليؤد لهم حقوقهم بحسب ما يقدر عليه، فإن عجز فلا يبقى له إلا الإكثار من الحسنات حتى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن حسناته بقدر كثرة مظالمه.

فإن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم، وهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمّته أما أمواله الحاضرة فعليه أن يرد ما يعرف له مالكاً معيّناً، أما من لا يعرف له مالكاً فعليه أن يتصدق به، وإن اختلط الحرام بالحلال فعليه أن يعرف قدر الحرام وإلا فيتصدّق بخمسه. كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«أنه إذا تصدق بخمسه حل له الباقي»[1].

---

(١) الكافي: ج ٥ ص ١٢٥.

وأما الجناية على القلوب، وهي أن يشافه الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم بالغيبة وغيرها، فعليه أن يطلب كل من تعرض له بلسانه أو أذى قلبه بفعل ليستحلّ منهم واحداً واحداً. أما من مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات. أما من وجده وأحلّه بطيب قلبه فذلك كفارته. وعليه أن يعرّفه قدر جنايته وتعرّضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفي، إذ ربما لو عرف مقدار تعديه عليه وكثرته لم تطب نفسه بالإحلال، فيدّخر ذلك إلى يوم القيامة ليأخذها من حسناته، أو يحمله من سيئاته.

أما لو كانت جنايته بحيث لو ذكرها وعرّفه إياها لتأذى بمعرفتها، كزناه بجاريته أو أهله أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه إذا شافهه به فقد انسدّ عليه طريق الاستحلال وليس له إلا أن يستحلّ بشكل مبهم، أما المظلمة فتبقى وعليه أن يجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميّت والغائب.

٤ ـ العزم:

أما العزم فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكّداً أو يعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها. فالتوبة لا تتحقق ما لم يتأكد عزم التائب في عدم العودة إلى الذنوب. ولا يتصور للتائب ذلك في أوّل أمره إلا بالعزلة والصمت وقلّة الأكل والنوم وإحراز القوت الحلال.

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة.

مراتب التائبين

إن تصور الذنب وذكره والتفجّع عليه كمال في حق المريد المبتدي، لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه، فلا تقوى عندها إرادته، ولا ينبعث لسلوك طريق الآخرة، ولأنه سيسلب منه أيضاً الحزن والخوف الرادع عن الرجوع إلى مثله. فذكر الذنب وتذكره بالنسبة إلى الغافل كمال ولكنه بالنسبة إلى سالك طريق الآخرة نقصان لأنه شغل يمنع من السلوك. بل سالك طريق الآخرة ينبغي أن لا يعرّج على غير السلوك، فإن ظهر له مبادي الوصول، وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب جذبه هذا الكشف فلم يبق له متّسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال.

فشرط دوام التوبة أن يكون السالك كثير الفكر في النعيم وفي الآخرة لتزداد رغبته وتقوى.

ولكن إن كان شاباً فلا ينبغي له أن يطيل فكره في كل ما له نظير في الدنيا كالحور والقصور، لأن ذلك الفكر ربما يحرك فيه الرغبة فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة. بل ينبغي أن يتفكر دائماً في لذّة جوار الله فقط، فإن ذلك لا نظير له في الدنيا.

وكذلك تذكر الذنب فقد يكون محركاً للشهوة، والمبتدي أيضاً

قد يستضرّ به فيكون النسيان له أفضل. ولا يصدّنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى عن بكاء داود ونياحته ﷺ، فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الإعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأمتهم. فهم ما بعثوا إلا لإرشادهم لذا كان عليهم التلبّس بما تنتفع أمّتهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم، فلقد كان من الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وهو مستغن عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس ولكن كان يفعل ذلك تسهيلاً للأمر على المريد ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«أما إني لا أنسى ولكني أُنسى لأشرّع»(١).

ولا تعجب من ذلك فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء. أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير كيف ينزل إلى درجة نطقه. فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فإنها مزلة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين.

ويمكن أن نقسّم التائبين إلى أربع طبقات:

الطبقة الأولى:

أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلاّت التي لا ينفك البشر عنها عادة. وهذه هي مرتبة الاستقامة على التوبة، وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات، واسم

---

(١) في الموطأ ج ١ ص ٩١: عن مالك بلغه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأنسى أو أنسّى لاسنّ».

هذه التوبة؛ التوبة النصوح، واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقول النبي ﷺ:

«سبق المفردون المستهترون بذكر الله، وضع الذكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافا»(١).

ففي الحديث إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم. وأهل هذه المرتبة أيضاً على درجات من حيث النزوع إلى الشهوات:

فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها.

وإلى تائب لا ينفك عن منازعة النفس ومجاهدتها وردّها. ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلّة وباختلاف المدّة والأنواع. وكذلك يختلفون من حيث طول العمر؛ فمن مختطف قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة، ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلى وأفضل.

الطبقة الثانية:

تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وقصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يعزم على الإقدام عليها، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يحترز عن أسبابها التي تعرّضه لها.

---

(١) أخرجه الترمذي ج ١٣ ص ٨٨.

وهذه النفس هي النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها على ما يعرض عليه من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم ولا قصد. وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت أدنى من الدرجة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي الذي قلّما ينفك عنه، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه فترجح كفّة الخيرات، أما أن يخلو بالكامل من كفّة السيئات فذلك في غاية البعد.

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[1].

فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين النفس عليه فهو جدير بأن يكون من اللّمم المعفو عنه وقد قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2].

فأثنى تعالى عليهم رغم أنهم ظلموا أنفسهم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه، وإلى مثل هذه الرتبة أشار النبيﷺ فقال:

«خياركم كل مفتّن توّاب»[3].

وفي رواية أخرى قالﷺ:

«إن الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب»[4].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب.

(٤) أخرجه أحمد.

وفي رواية أخرى:

«المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً»(١).

وفي رواية أخرى أيضاً:

«لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة»(٢).

أي الحين بعد الحين. وكل ذلك أدلّة قاطعة على أن القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين.

ومن يؤيس الناس عن التوبة كالفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بسبب فتوره عن الطلب والتحصيل في بعض الأوقات، وهذا يدل على نقصان الفقيه، بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات الكمال والسعادة بسبب ما اقترفوه من السيئات في فترات متقطعة، فقد قال النبي ﷺ:

«كل بني آدم خطاءٌ وخير الخطائين التوابون المستغفرون»(٣).

وقال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾(٤).

الطبقة الثالثة:

أن يتوب الإنسان ويستمر على الاستقامة مدّة ثم تغلبه شهوته في

---

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أنس.

(٢) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٢٠١.

(٣) الحاكم: ج ٤ ص ٢٤٤.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٤.

بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من الذنوب مع القدرة.

والشهوة إنما قهرته وهو يودّ لو أقدره الله على قمعها وكفاه شرّها، هذه أمنيته عند قضائه للشهوة وبعد الفراغ يتندم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها، لكن تسوّل له نفسه مرّة أخرى ويسوّف بالتوبة مرّة بعد أخرى ويوماً بعد يوم، وهذه النفس هي التي تسمى بالنفس المسوّلة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾(1).

فأمر مثل هذا الإنسان من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجوّ، فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة بسبب تسويفه وتأخيره، إذ ربما يختطفه الموت قبل التوبة فيقع أمره في المشيئة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ومنّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحقّ عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تعذّر على المتفقّه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذّره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقّه، وإذا يسّرت له أسباب المواظبة على التحصيل دلّ على أنه سبق له في الأزل أن يكون في جملة العاملين. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى ارتباط سعادات الآخرة

---

(1) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.

ودركاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول ملكة الفقه في النفس بترك الكسل والمواظبة على التفقه والعلم.

فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا القرب من ربّ العالمين إلا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية والتطهير، هكذا سبق في الأزل تدبير ربّ الأرباب، ولذلك قال تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١].

وإذا وقع العبد في ذنب فصار الذنب نقداً والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان، ولذلك قال النبي ﷺ:

«إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس: إنه من أهلها ولا يبقى بينه وبينها إلا شبر فيسبق عليه الكتاب فليعمل بعمل أهل النار فيدخلها»[٢].

الطبقة الرابعة:

أن يتوب ويجري مدّة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع الشهوات فهذا من جملة المصرّين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء، الفرارة من الخير. ويخاف على مثل هذا الإنسان من سوء الخاتمة وأمره في مشيئة الله، فإن ختم

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ إلى ١٠.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٧٦.

له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتى يموت على التوحيد فيتوقع له النجاة من النار ولو بعد حين، ولا يبعد أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطّلع عليه.

فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار، أما طلب المغفرة بمجرّد الرجاء مع فساد الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة. فالناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم. فمن ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مقصّر عن الطاعة مصرّ على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين. والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه لحماقته بصيغة حسنة فيقول: إن الله كريم وجنّته ليست تضيق عن مثلي ومعصيتي ليست تضرّه. ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأخطار في طلب الدينار وإذا قيل له: إن الله كريم وخزائنه ليست تقصر عن فقرك، فيستهزئ ويقول: ما هذا الهوس؟ السماء لا تمطر ذهباً! ولا يعلم المغرور أن ربّ الآخرة وربّ الدنيا واحد وأنه لا تبديل لسنّة الله، وقد أخبر بذلك إذ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[1] فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وبخيل في الدنيا؟!

فنعوذ بالله من العمى والضلال، فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحبه جدير بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى:

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[1].

أي اننا أبصرنا وصدقنا معنى قولك: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فارجعنا لنسعى، ولكن لا سبيل إلى الرجوع فيحق عليه العذاب. نعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب المؤدي إلى سوء المنقلب والمآب.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.

ما ينبغي أن يبادر إليه التائب

إن على التائب التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاد الذنب الذي ارتكبه. فإن لم تساعده النفس على ترك الذنب لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين ولا ينبغي له أن يترك الواجب الآخر وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، والحسنات تكفّر السيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح.

١ ـ اما بالقلب؛ فليكفّره بالتضرّع إلى الله في سؤال المغفرة والعفو والتذلّل حتى يظهر ذلّه لسائر العباد بالتواضع لهم وترك التكبر عليهم. وكذلك بأن يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعة.

٢ ـ اما باللسان؛ فمن خلال الاعتراف بالظلم والاستغفار.

٣ ـ اما بالجوارح؛ فبالطاعات والصدقات.

ففي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا تبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجواً: أربعة من أعمال القلوب وهي: التوبة أو العزم على التوبة وحب الإقلاع عن الذنب وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة

له وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن يصلي عقيب الذنب ركعتين ثم يستغفر الله بعدهما سبعين مرّة، ويقول: «سبحان الله العظيم وبحمده» مائة مرّة، ثم يتصدّق بصدقة ثم يصوم يوماً.

ولذلك قيل: صدقة السرّ تكفّر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفّر ذنوب النهار. وفي الخبر:

«أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض عليّ بحكم الله. فقال ﷺ: أو ما صليت معنا صلاة الغداة؟ قال: بلى، فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات»(١).

وهذا يدل على أن ما دون الزنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفّارة له بمقتضى قوله: «الصلوات الخمس كفّارة لما بينهنّ إلا الكبائر». فعلى التائب في كل الأحوال أن يحاسب نفسه في كل يوم، فيجمع سيئاته ويجتهد في دفعها بالحسنات.

وقد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر حتى قرن الله تعالى الاستغفار ببقاء الرسول فقال:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾(٢).

حتى كان الأصحاب بعد رسول الله ﷺ يقولون: كان لنا أمانان

---

(١) أخرجه البخاري: ج ٦ ص ٩٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

ذهب أحدهما (وهو كون الرسول فينا)، وبقي لنا آخر وهو الاستغفار، فإن ذهب هلكنا.

فالاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة بل منشؤه العادة والغفلة. أما إذا انضاف إلى الاستغفار تضرّع القلب إلى الله وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نيّة ورغبة فهذه حسنة تصلح لأن يدفع بها السيئة، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال النبي ﷺ:

«ما أصرّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرّة»[(١)].

فأول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة. والاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب. والتوبة عبارة عن إقبال العبد على مولاه بترك الخلق الفاسد والاستغفار من تقصيره ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له. ثم بعدها ينتقل إلى العزلة والانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السرّ وهو الخلّة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش حتى يكون مقامه مقام حملة العرش.

فقد قال النبي ﷺ: «التائب حبيب الله».

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ١٣ ص ٦٩.

وإنما يكون التائب حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى:

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

فالحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه والمقصود، ان للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له، والثاني: نيل الدرجات حتى يكون حبيباً. فلا ينبغي أن يظن أن الاستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وجودها كعدمها، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾[2] صدق، وانه لا تخلو ذرة من خير عن أثر. فإياك أن تستصغر ذرّات الطاعات فلا تأتيها وذرات المعاصي فلا تتقيها. فالتضرع والاستغفار بالقلب إذاً حسنة لا تضيع عند الله أصلاً. بل ان الاستغفار باللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان بغيبة مسلم، بل خير من السكوت عنه. نعم إنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القَلْبْ.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٢.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٧.

طرق معالجة الذنوب

إن الناس قسمان:

١ ـ شاب لا صبوة له نشأ على الخير واجتناب الشر وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ:

«يعجب ربك من شاب ليست له صبوة»[١].

٢ ـ القسم الثاني هو الذي لا يخلو عن مقارفة الذنوب؛ وهؤلاء أيضاً ينقسمون إلى:

١ ـ مصرّون.

٢ ـ تائبون.

وغرضنا في هذا الفصل بيان العلاج في حلّ عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه. فالشفاء من الذنوب لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، فكل داء حصل من سبب فدواؤه حلّ ذلك السبب ورفعه وإبطاله، ولا يبطل الشيء إلا بضدّه، ولا سبب للإصرار إلا

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني.

الغفلة والشهوة. ولا يضاد الغفلة إلا العلم ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا. قال الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ۝١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝١٠٩﴾[1].

فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، فلا بدّ من بيانهما:

أ ـ العلم:

إن العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب لكن لكل مرض علم يخصّه، كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخصّ كل علّة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار. فالمريض بشكل عام يحتاج إلى التصديق بأمور أربعة:

الأول: أن يصدّق بأن للمرض والصحة أسباباً يتوصل إليها بالاختيار على ما رتبه مسبّب الأسباب وهذا هو الإيمان بأصل الطب. والذي لا يؤمن به لن يشتغل بالعلاج فيحق عليه الهلاك، وهذا مثاله مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع، وهو أن للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة وللشقاوة سبباً وهو المعصية. وهذا الإيمان بأصل الشرع لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان.

الثاني: أن يعتقد المريض في طبيب عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبّر عنه. فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه لوحده من دون

---

(١) سورة النحل، الآيتان: ١٠٨ و١٠٩.

هذا الاعتقاد والإيمان. ومثاله مما نحن فيه العلم بصدق الرسولﷺ والإيمان بأن كل ما يقولهﷺ حقّ وصدق لا كذب فيه ولا خلف.

الثالث: لا بد للمريض وأن يصغي إلى الطبيب فيما يحذّره منه، ووزانه في الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلقى على سمعه منها من غير شك واسترابة حتى ينبعث فيه الخوف المقوي على الصبر الذي هو الركن الآخر من العلاج.

الرابع: أن يصغي المريض إلى الطبيب فيما يخصّ مرضه مما يلزمه الاحتماء عنه وليعرّفه تفصيل ما يضرّه من أفعاله وأحواله ومأكوله ومشروبه فليس على المريض الاحتماء عن كل شيء، ولا كل دواء نافع له، بل لكل علة خاصة علاج خاص. ووزانه في الدين أن لكل عبد ذنباً خاصاً به أو ذنوباً مخصوصة، وإنما حاجته في الحال مرهقة العلم بأنها ذنوب ثم العلم بآفاتها وقدر ضررها في الدين، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها، ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها.

فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وورثة الأنبياء. فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم، وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك، بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم ويميّز ما يضرّهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسعدهم، ولا ينبغي أن يصبر العالم إلى أن يأتي من يسأله بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس فإنهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم فيرشدونهم. فإن

مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم، والخلق يولدون جهالاً ولا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل الفرع. فالدنيا دار مرضى، إذ ليس في بطن الأرض إلا ميّت ولا على ظهرها إلا سقيم، ومرض القلوب أكبر من مرض الأبدان والعلماء أطباء. وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

الأولى: ان المريض لا يدري أنه مريض.

الثانية: ان عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن.

الثالثة: هو فقد أطباء القلوب وهم العلماء، فقد مرضوا هم بدورهم وصارت لهم سلوة في عموم المرض. لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على أطباء القلوب أيضاً فلم يتمكنوا من تحذير الناس استنكافاً من أن يقال لهم: فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم.

فلهذه الأسباب عمّ الداء وعظم الوباء وانقطع الدواء، وهلك الخلق لفقد الأطباء، بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء، فليتهم إذ لم يصلحوا لم يفسدوا، وليتهم سكتوا فما نطقوا.

فالعلماء إذا تكلموا لم يكن مهمّ في موعظتهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم، ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالرجاء وتغليب أسباب الرجاء، وذكر دلائل الرحمة، لأن ذلك ألذ في الأسماع وأخف على الطباع، فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد ثقة بفضل الله ومغفرته.

وإن كان الطبيب جاهلاً أو خائناً فإنه يهلك بالدواء حين يضعه في غير موضعه. فالرجاء والخوف دواءان ولكن لشخصين متضادّي

العلّة. فالذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكامل وكلّف نفسه ما لا يطيق وضيّق العيش على نفسه فإن إسرافه في الخوف يكسر بذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال. وكذا المصرّ على الذنوب المشتهي للتوبة الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاماً لذنوبه التي سبقت منه، فإن مثل هذا الإنسان يعالج أيضاً بالرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب. أما معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرجاء له، فإنه يضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء. فهذا من دأب الجهال والأغبياء، بلا لا بد أن يعالج بالخوف لكي يرتدع عن فعله. إذن فإن فساد الأطباء هو الداء المعضل الذي لا يقبل الدواء أصلاً.

والعلاج النافع لحلّ عقدة الإصرار، وحمل الناس على ترك الذنوب أربعة أمور:

الأول: أن يذكر العالم ما في القرآن من الآيات المخوّفة للمذنبين والعاصين، وكذلك ما ورد في الأخبار. فالأخبار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان هو وارث رسول الله ﷺ فإنه ما خلّف درهماً ولا ديناراً وإنما خلّف العلم والحكمة وقد ورّثهما كل عالم بقدر ما أصابه.

الثاني: حكايات الأنبياء والأصحاب وما جرى عليهم من مصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق. كأحوال آدم عليه السلام في عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة. . .

وفي قصص موسى عليه السلام روي أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ فقال: بتركي المعاصي لأجل الله تعالى.

وروي أيضاً أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب، لم خفت عليه الذئب ولم ترجني، ولم نظرت إلى غفلة اخوته ولم تنظر إلى حفظي له.

وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[1]، فقال الله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾[2] أمثال هذه الأخبار لا حصر لها، والغرض منها الاعتبار والاستبصار ليعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار. نعم لقد كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة في دار الدنيا ولم يؤخروا إلى الآخرة. أما الأشقياء فيمهلون ليزدادوا إثماً ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر. فهذا أيضاً ما ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرّين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

الثالث: أن يقرر العالم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب، وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته، فربّ عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله، فينبغي أن يخوّف به فإن الذنوب كلها يمكن أن يتعجّل شؤمها في الدنيا، حتى قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولي عليه أعداؤه، فقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

«إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[3].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٣) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٠٢٢ وفي الكافي: ج ٢ ص ٢٧١ مثله.

وفي الحديث القدسي أن الله تعالى يقول:

«إن أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾، ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلا بذنب ولما يعفو الله أكثر»[1].

وعنه عليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنين: ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً والموت فضح الدنيا ولم يترك لذي لب فرحاً»[2].

الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على الذنوب كالخمر والزنى والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد وغيرها من الذنوب.. وذكر هذه الأمور لغير أهلها وضع للدواء في غير موضعه. بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدل أولاً بالنبض والهيئة واللون والحركات على العلل الباطنة ثم يشتغل بعلاجها. فالكلام ينبغي أن يكون على قدر حال السائل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال له واحد

(١) الكافي: ج ٢ ص ٤٤٥ رقم ٦.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ٤٥١ رقم ١.

أوصني ولا تكثر عليّ فقال له: [لا تغضب]. وقال له آخر أوصني فقال ﷺ:

«عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصلّ صلاة مودّع وإياك وما يتعذر منه»(١).

فكأنه ﷺ توسم بالسائل الأول مخائل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخائل الطمع في الناس وطول الأمل، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل. إذن على كل ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرّس الصفات الخفية وتوسّم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم، فإن حكاية جميع مواعظ الشرع غير ممكن والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوغّل فيه تضييع للوقت.

أما إن كان العالم يعظ في جمع فعليه أن يعظ بما يشترك فيه كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية، فالأغذية للكافّة والأدوية لأرباب العلل.

ومثاله ما قال لقمان لابنه:

«يا بني زاحم العلماء بركبتك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاًّ، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضرّ بصلاتك فإن

(١) أخرجه الحاكم وابن ماجه.

الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجهين. ـ وقال لابنه أيضاً ـ: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش من غير أرَب (حاجة)، ولا تسأل عما لا يعنيك ولا تضيّع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدّمت ومال غيرك ما تركت، يا بني إنّ من يَرحَم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشرّ يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم».

فهذه المواعظ مثل الأغذية التي يشترك كافة الخلق في الانتفاع بها. وبسبب فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ وغلبت المعاصي واستشرى الفساد وبليَ الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً ويتكلفون ذكر ما ليس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم، فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب، بل القائل متصلّف (متملّق) والمستمع متكلّف.

ب ـ الصبر:

ووجه الحاجة إلى الصبر، أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضرّه، وإنما يتناول ذلك إما لغفلته أو لشدة غلبة شهوته. وما ذكرناه سابقاً هو علاج الغفلة فيبقى لنا علاج الشهوة. وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضرّ فطريقه أن يستشعر عظم ضرره، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذي يصيبه جراء تركه، وكذلك هي الحال في معالجة الشهوة في المعاصي. فالشاب مثلاً إذا غلبت عليه الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو

حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته، فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوّفات التي جاءت في كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، حتى إذا اشتد خوفه ابتعد عن الأسباب المهيجة لشهوته. وكل ذلك لا يتم إلا بالصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار أو عن سماع وتقليد. فأول الأمر حضور مجالس الذكر ثم الاستماع عن قلب مجرّد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع، ثم التفكر فيه لتمام الفهم، فينبعث من تمامه لا محالة الخوف وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر وانبعثت الدواعي لطلب العلاج. فمن أعطى بقلبه حسن الإصغاء واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب وصدّق بالحسنى فسييسره الله لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسييسره الله للعسرى.

أسباب الإصرار على الذنب عند المؤمن

إن الإصرار على الذنب ليس مردّه دائماً لفقد الإيمان بل قد يكون أيضاً لضعف الإيمان لا لفقده. إذ كل مؤمن مصدّق بأن المعصية سبب للبعد عن الله وسبب للعقاب في الآخرة، أما السبب في وقوعه في الذنب فيرجع إلى أمور:

أحدها: إن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر، والنفس بطبيعتها جبلت على التأثر بالحاضر.

الثاني: ان الشهوات الباعثة على الذنوب لذّاتها ناجزة وقد قويت واستولت عليه بسبب الاعتياد والألفة، فالنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال الله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠ و٢١.

(٢) سورة الأعلى، الآية: ١٦.

وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله ﷺ:

«حفّت الجنة بالمكاره وحفّت النار بالشهوات»[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن الله خلق النار فقال لجبرئيل: إذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها، فحفها بالشهوات ثم قال: إذهب فانظر إليها فنظر فقال: وعزّتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبرئيل، إذهب فانظر إليها فنظر فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره ثم قال: اذهب فانظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألاّ يدخلها أحد»[2].

إذن فكون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخر إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال في الذنوب مع حصول أصل الإيمان.

الثالث: إنه ما من مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات. إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوّف بالتوبة والتكفير..

الرابع: إنه ما من مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنب لا

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ١٠ ص ٣٢.

(٢) الترمذي: ج ١٠ ص ٣٣.

يوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها، فهو يذنب وينتظر العفو اتكالاً على فضل الله.

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان.

الخامس: وهو سبب يقدح في أصل الإيمان وهو كون المذنب شاكّاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر.

وعلاج هذه الأسباب الخمسة هو:

١ - في السبب الأول: أن يقر على نفسه بأن العقاب وإن تأخر ان كلَّ ما هو آت آت وإن غدا لناظره قريب، وان الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله، فما يدريه فلعل الساعة قريب.

٢ - في السبب الثاني: أن يقول لنفسه أن كل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة في أيام الدنيا، فإذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟

وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر على الشهوة فكيف أطيق ألم النار؟ وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدورتها وتنغّصها وامتزاج صفوها بكدرها، فكيف أصبر عن نعيم الآخرة؟

فبهذا التفكر يعالج اللذّة الغالبة عليه ويكلّف نفسه تركها.

٣ - في السبب الثالث: وهو التسويف في التوبة فيعالجه بالتفكر في حقيقة أن أكثر صياح أهل النار من التسويف، لأن المسوّف يبني على أنه باق ولعله لا يبقى، وإن بقي فقد لا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم. وليت شعري هل عجز عن الترك في الحال إلا لغلبة الشهوة عليه، والشهوة ليست تفارقه غداً بل قد

تتضاعف لأنها تتأكد وتترسخ بالاعتياد عليها. فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها وعن هذا هلك المسوّفون.

وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه.

فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته، إذ عجز مع قوته عن مقاومة شهوته فأخذ ينتظر حتى غلبت عليه.

٤ ـ في السبب الرابع: وهو انتظار عفو الله تعالى، فعلاجه ما سبق.

وحال هذا الإنسان كمن ينفق جميع أمواله ثم يترك نفسه وعياله فقراء منتظراً فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة.

٥ ـ في السبب الخامس: وهو الشك وهو الكفر ـ كما أشرنا ـ وعلاجه الأسباب التي تعرّفه صدق الرّسل وذلك يطول، ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله، فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالعجزات، فيقال له مثلاً: لو أخبرك شخص واحد مجهول عندما تركت للحظة طعامك في البيت أن حيّة قد ولغت فيه وألقت سمّها فيه وجوّزت صدقه فهل تأكله أم تتركه حتى لو كان ألذ الأطعمة، فإنه سيقول: اتركه لا محالة لاني أقول: إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد. فيقال له: يا سبحان

الله فكيف تؤخر صدق دعوة الأنبياء مع ما ظهر لهم من المعجزات، وصدق الأولياء والعلماء. فإنهم إن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدّرة.

ولذلك قال علي عليه السلام لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكاً:

«إن صح ما قلت فقد تخلّصنا جميعاً وإلا فقد تخلّصنا وهلكت».

وعلاج القلوب لردها إلى التفكر يكون:

١ ـ بالتدبر في عقبات الآخرة وأهوالها وشدائدها وحسرات العاصين في الحرمان من النعيم المقيم. وهذا التفكر مؤلم للقلب ولذلك ينفر عنه القلب ويتلذذ بالتفكر في أمور الدنيا.

٢ ـ التفكر في الموت وما بعده.

٣ ـ التفكر في لذات الدنيا السريعة الزوال والمشوبة بالمكدرات، أما لذات الآخرة فهي أشد وأعظم ولا آخر لها ولا كدورة فيها.

فهذا التفكر منبّه للقلب وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار ابن ياسر فقال لعلي عليه السلام:

«يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ فقال: على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمي نسي الذكر،

ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شكّ غرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب»[1].

(١) أصل هذا الخبر مروي في الكافي باختلاف.

الموت وما بعده..

مقدمة

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة وكسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آجال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتى جاءهم الوعد الحق فإذا هم في الحافرة فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللّحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ومن التنعّم بالشراب إلى التمرّغ بالتراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً أو اتخذوا من دونه حجاباً حرزاً، وأبصر هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً.

فسبحان من تفرّد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء وموعداً للّقاء وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء. فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السماوات والأرض، وله الحمد في الآخرة والأولى.

فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه،

ومنكر ونكير جليسه والقبر مقرّه وبطن الأرض مستقرّه، والقيامة موعده، والجنّة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكرٌ إلا لأجله ولا تطلع إلا إليه ولا تعريج إلا عليه ولا اهتمام إلا به ولا حوم إلا حوله ولا انتظار ولا تربّص إلا له، وحقيق بأن يعد نفسه من الموتى فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت وقد قال النبي ﷺ:

«الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت».

ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب، ولا يتجدد ذكره إلا عند الإصغاء إلى المذكرات له، والنظر في المنبهات عليه، ونحن سنذكر في هذا القسم من الكتاب أمر الموت ومقدّماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار وما لا بد للعبد من تذكره على الدوام وملازمته بالتفكر والاستبصار ليكون ذلك مستحثاً على الاستعداد، فقد قرب الرحيل وما بقي من العمر إلا القليل والخلق غافلون، واقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون.

فضيلة ذكر الموت

إن المنهمك بالدنيا المكبّ على غرورها المحبّ لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه ونفر منه، وأولئك هم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[١].

والناس إما منهمك أو تائب مبتدئ أو عارف منته.

ـ أما المنهمك؛ فلا يذكر الموت وإن ذكره فإنه يذكره ليتأسف على دنياه، وهذا إنما يزيده ذكر الموت من الله بعداً.

ـ وأما التائب؛ فإنه يكثر ذكر الموت لكي ينبعث من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل التوبة وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا الشخص تحت قول النبي ﷺ:

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٨.

«من كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1].

فإن هذا الإنسان ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره. وعلامة هذا المقام أن يكون صاحبه دائم الاستعداد للقاء الله ولا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا.

- وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه بحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب. فهو يحب مجيء الموت ليتخلّص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين. وهو معذور في حب الموت وتمنيه. وهنا مقام أعلى وأسمى وهو مقام من يفوّض أمره إلى الله فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، فهذا الإنسان قد انتهى به فرط الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضا، وهو الغاية والمنتهى.

وعلى كل حال فإن في ذكر الموت ثواب وفضل، حتى المنهمك بالدنيا فإنه يستفيد أيضاً من ذكر الموت بالتجافي عن الدنيا، إذ يتنغّص عليه نعيمه ويتكدّر عليه صفو لذّته، وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة:

قال النبي ﷺ:

«أكثروا ذكر هادم (قاطع) اللذات الموت»[2].

وقال ﷺ:

«لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً»[3].

---

(١) صحيح مسلم: ج ٨ ص ٦٥.

(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢٥٨.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب.

وقال ﷺ:

«أكثروا ذكر الموت فإنه يمحّص الذنوب ويزهد في الدنيا»(١).

وقال ﷺ:

«كفى بالموت واعظاً»(٢).

وخرج النبي ﷺ إلى المسجد فإذا قومه يتحدّثون ويضحكون فقال:

«اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»(٣).

وسئل النبي ﷺ من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟ فقال:

«أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم استعداداً له أولئك هم الأكياس، ذهبوا (أي حصلوا على) بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»(٤).

وعن أبي عبيدة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: حدثني ما أنتفع به فقال:

«يا أبا عبيدة أكثر ذكر الموت فإنه لم يكثر ذكره إنسان إلا زهد في الدنيا»(٥).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت.
(٢) أخرجه الطبراني.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت.
(٤) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٢٣٨.
(٥) الكافي: ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ١٨.

وعن أبي بصير قال:

«شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام الوسواس فقال: يا أبا محمد أذكر تقطّع أوصالك في قبرك، ورجوع أحبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك، وخروج بنات الماء من منخريك، وأكل الدود لحمك فإن ذلك يسلّي عنك ما أنت فيه، قال أبو بصير: فوالله ما ذكرته إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا»(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان مأجوراً كلما نظر إليه»(٢).

وعنه عليه السلام قال:

«ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحهم كل يوم خمس مرات»(٣).

وقال عليه السلام:

«إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل فانظر ماذا تستأنف، ثم قال: عجب لقوم حبس أوّلهم عن آخرهم ثم نودي فيهم الرحيل وهم يلعبون»(٤).

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ٢٠.
(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢٥٦ رقم ٢٣.
(٣) المصدر السابق: رقم ٢٢.
(٤) الكافي: ج ٣ ص ٢٥٩ رقم ٢٩.

وعنه عليه السلام قال:

«قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أنزل الموت حق منزلته من عدّ غدا من أجله، قال: وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل، وكان يقول: لو رأى العبد أجله وسرعته إليه لأبغض العمل من طلب الدنيا»(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقطع منابت الغفلة ويقوّي القلب بمواعد الله ويرق الطبع ويكسر أعلام الهوى ويطفي نار الحرص ويحقر الدنيا وهو معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: فكر ساعة خير من عبادة سنة، وذلك عندما يحلّ أطناب خيام الدنيا ويشدّها في الآخرة ولا يسكن نزول الرحمة على ذاكر الموت بهذه الصفة ومن لا يعتبر بالموت وقلّة حيلته وكثرة عجزه وطول مقامه في القبر وتحيّره في القيامة فلا خير فيه، قال النبي صلى الله عليه وآله: اكثروا ذكر هادم اللذّات، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدّة إلا اتسعت عليه، والموت أوّل منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأوّلها

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٥٩ رقم ٣٠.

وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من ابن آدم وهو يعدُّه أبعد، فما أجرأ الإنسان على نفسه وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبي ﷺ: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1].

---

(١) مصباح الشريعة: الباب ٨٣.

طريق تحقيق ذكر الموت في القلب

إن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة تفكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره منهم فليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا فلا ينجح ذكر الموت فيه. والطريق لتحقيق ذكر الموت في القلب يحصل بأن يفرّغ العبد قلبه من كل شيء إلا من ذكر الموت. كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يفكر إلا فيه، وإذا باشر قلبه ذكر الموت فإنه سيتأثر به وعند ذلك يقلّ مزحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه.

وأفضل طريق فيه أن يكثر الإنسان تذكر أقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب ويتذكر صورهم وأحوالهم وكيف محا التراب حسن صورتهم، وكيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيّعوا أموالهم وانقطعت آثارهم وأوحشت ديارهم.

وأن يتذكر كيف أن الميت كان يمشي والآن قد تهدّمت رجلاه، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به

حتى جاءه الموت في وقت لم يكن يحتسبه، فانكشفت له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنّة وإما بالنار.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعدّ له فيتجافى عن دار الغرور وإلا فإن تذكر الموت بظاهر القلب ولقلقة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، وإذا طاب قلبه بشيء من الدنيا فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته.

نظر أحدهم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى وقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته...

فضيلة قصر الأمل

قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر:

«إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح وخذ من دنياك لآخرتك ومن حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً»(١).

وعن علي عليه السلام أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق، وأما طول الأمل فإنه يحبّب الدنيا، ثم قال: ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان إلا أنّ للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدّين ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولّية ألا

---

(١) رواه البخاري وابن حبان.

إنّ الآخرة قد أتت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل»(١).

اطلع رسول الله ذات عشية على الناس فقال:

«أيها الناس أما تستحيون من الله عز وجل؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون»(٢).

وروي أن أسامة بن زيد بن ثابت اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر فقال رسول الله ﷺ:

«ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر، إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفريّ لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغصّ بها من الموت، ثم قال: يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل.
(٢) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٢٤١.
(٣) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٢٣٢.

وقال النبي ﷺ:

«أكلكم يحب أن يدخل الجنّة؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: قصروا من الأمل واجعلوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء»[1].

وكان ﷺ يقول في دعائه:

«اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير المماة، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل»[2].

وقال سلمان الفارسي:

«ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني؛ مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه وضاحك ملء فيه لا يدري أساخط ربّ العالمين عليه أم راض عنه، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأحبة محمّد وحزبه، وهول المطّلع والوقوف بين يدي ربي لا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل.

(٢) المصدر السابق.

أسباب طول الأمل وعلاجه

إن لطول الأمل سببين:

١ ـ الجهل.

٢ ـ حب الدنيا.

ـ فالإنسان إذا أنس بالدنيا وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع عن التفكير في الموت. وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه والإنسان مشغوف بالأماني الباطنة فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهم البقاء ويقرّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا التفكر بالدنيا فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدّر قربه. وإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت وضرورة الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك فانتظر حتى تكبر ثم تتوب، وإذا كبر يقول في نفسه انتظر إلى أن تصير شيخاً أمامك متسع من الوقت، وإذا صار شيخاً يقول: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو إلى أن ترجع من هذه السفرة.. ولا يزال يسوّف ويؤخر إلى أن تختطفه المنيّة في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته. وأكثر أهل

النار صياحهم من «سوف» يقولون: «واحزناه من سوف».

والمسوّف المسكين لا يدري أنّ الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد حب الدنيا في قلبه بطول المدّة قوّة ورسوخاً. فأصل الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قول النبي ﷺ:

«أحبب ما أحببت فإنك مفارقه».

- أما الجهل فهو بان يعوّل الإنسان على شبابه فيستبعد دنو الموت مع الشباب. والمسكين لا يعلم أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقلّ من عشر أهل البلد، وإنما قلوا لأن الموت في الشبان أكثر. فإلى أن يموت الشيخ يموت ألف شاب وصبي وقد يستبعد الشاب الموت وهو لا يدري أنه غير بعيد عنه.

ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص لعظم اشتغاله بالاستعداد له واستشعاره، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب.

فهو يشيّع الجنائز ولا يقدّر أنه سيشيع يوماً لأن هذا قد تكرّر عليه وألفه، وهو قد شاهد موت غيره أما موت نفسه فلم يألفه.

أما علاج الجهل وحب الدنيا فهو في دفع أسبابهما، أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي مع حضور القلب وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة.

أما حب الدنيا وهو الداء العضال الذي أعيى الأولين والآخرين فلا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وما فيه من عظم العقاب وجزيل

الثواب، فإذا حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا. فالإنسان إذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا حتى لو أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب فكيف وهو لا يملك من الدنيا إلا القدر اليسير المكدّر والمنغّص. فكيف يمكن أن يجتمع حب الدنيا والفرح بها مع الإيمان بالآخرة وحبها.

ولا سبيل إلى تمكين الموت في القلب إلا النظر إلى من مات من الأقران والتفكر في أنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا، أما من كان مستعداً له فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً. ولينظر الإنسان كل ساعة إلى أطرافه وأعضائه وليتدبر أنه كيف تأكلها الديدان وكيف تتفتت عظامها.

وليتفكر في الدود كيف سيأكل حدقتيه. فما للإنسان من سبيل للنجاة سوى العلم والعمل الخالص لوجه الله والتفكر بما سيلقاه بعد الموت من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وفزع النداء يوم العرض الأكبر.

فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدد ذكر الموت في القلب وتدعوه إلى الاستعداد له.

مراتب الناس في طول الأمل وقصره

إن الناس متفاوتون في طول الأمل وقصره.

ـ فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً، وهو معنى قوله تعالى:

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1].

ـ ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه، وهو عبارة عن الإنسان الذي يحب الدنيا حباً شديداً، قال النبي ﷺ:

«حبّ الشيخ شاب في طلب الدنيا وإن التفّت ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم»[2].

ـ ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، فهو يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف وإذا جمع ما يكفيه لسنة اشتغل بالعبادة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٦.

(٢) البخاري: ج ٨ ص ١١١.

- ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء فلا يدّخر في الصيف ثياب الشتاء، ولا في الشتاء ثياب الصيف.

- ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعد إلا لنهاره، أما الغد فلا.

قال عيسى عليه السلام:

«لا تهتموا برزق غد فإن يكن غداً من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم».

- ومنهم من لا يتجاوز أمله ساعة كما قال النبي ﷺ:

«يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح»[1].

- ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة.

- ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه ينظر إليه، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودّع.

فهذه مراتب الناس ولكلٍّ درجات عند الله، والله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره.

فكل إنسان يدّعي قصر الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله، فتجده يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيكشف ذلك على طول أمله. وإنما علامة التوفيق تكمن بأن يجعل الإنسان الموت نصب عينيه ولا يغفل عنه ساعة، فيكون مستعداً دائماً للموت

(١) الترمذي: ج ٩ ص ٢٠٣.

متى ما ورد عليه. فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيّع نهاره بل استوفى منه حظّه وادّخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح.. وهذا لا يتيسّر إلا لمن فرّغ القلب عن الغد وما يكون فيه، فمثل هذا إذا مات سعد وغنم، وإن عاش سرّ بحسن الاستعداد ولذّة المناجاة، فالموت له سعادة والحياة له مزيد.

فليكن الموت في بالك أيها المسكين، فإن السير حادٌّ بك وأنت غافل عن نفسك، فلعلّك قد اقتربت من لحظة الموت وقطعت المسافة، وهذا لا يتحقق إلا بالعمل الصالح.

مخاطر تأخير العمل الصالح

إن من له أخوان غائبان ينتظر قدوم أحدهما في الغد والثاني بعد شهر، فمن الطبيعي أنه سيستعد للذي سيأتي من الغد لا للذي سيأتي بعد شهر، فالاستعداد نتيجة القرب.

فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسي ما وراء المدّة حتى يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها، وهذا مايمنعه من المبادرة إلى العمل الصالح، لأنه يرى لنفسه متّسعاً من الوقت في هذه السنة، فيؤخر العمل كما قال النبي ﷺ:

«ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنّداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال، فالدجال شرُّ غائب ينتظر، أو الساعة، والساعة أدهى وأمرّ»[1].

وقال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه:

«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك،

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ٩ ص ١٨٥.

وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(١).

وقال ﷺ:

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٢).

أي أنه لا يغتنمهما أكثر الناس ثم يعرفون قدرهما بعد زوالهما.

وخرج النبي ﷺ يوماً والشمس على أطراف السقف فقال:

«ما بقي من الدنيا إلا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه»(٣).

وقال النبي ﷺ:

«مثل الدنيا مثل ثوب يشق من أوّله إلى آخره فبقي معلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع»(٤).

وقال جابر: كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنه منذر جيش ويقول:

«صبحتكم ومسّيتكم بعثت أنا والساعة كهاتين - وقرن بين أصبعيه -»(٥).

---

(١) الحاكم: ج ٤ ص ٣٠٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا.

(٥) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ٢٠٩.

روي:

«أن النبي ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ فقال: إن النور إذا دخل الصدر أنفسح، فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف؟ فقال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»[١].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل.

سكرات الموت وشدّته

إنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ويتكدّر عليه سروره وأن يفارقه سهوه وغفلته، وأن يطول فيه تفكيره ويعظم له استعداده. قال لقمان لابنه وهو يعظه: «يا بني أمرٌ لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك».

والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو ثم انتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتكدّرت عليه لذّته وفسد عليه عيشه وتراه في كل لحظة ينتظر دخوله عليه، فكيف إذا كان هذا المسكين في كل نفس من أنفاسه هو بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ولكنه عنه غافل وما السبب إلا الجهل والغرور.

إن شدة الألم عند سكرات النزع لا يعرفها على حقيقتها إلا من ذاقها ومن لم يذقها فإنما يعرفها بالقياس إلى الآلام الأخرى التي أدركها. وإما من خلال الاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدّة ما هم فيه.

أما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه لا

يحس بالألم فإذا كانت فيه الروح تألم. فالمدرك للألم هو الروح، فإذا أصاب العضو الذي فيه الروح جرح أو حرق سرى الأثر منه إلى الروح وبقدر ما يسري إلى الروح يتألم. فآلام الجسد تمرّ من الأعضاء لتصل إلى الروح فلا يصيب الروح إلا بعض الأثر لتخلّلها وسائط كاللحم والدم وغير ذلك. أما إن كان الألم يباشر نفس الروح ولا يلاقي غيره فإن الألم يكون أعظم وأشد. وحالات النزع عبارة عن ألم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشرة في أعماق البدن إلا وقد حلّ به الألم.

فإذا أصابت الإنسان شوكة فإن الألم الذي يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقي ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق إلا ويصيبه الألم. وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذي يمسّه الحديد فقط. أما ألم النزع فإنه يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه، فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب ومفصل من المفاصل، ومن كل شعرة وبشرة من القرن إلى القدم، فلا تسأل عن كربه وألمه، فقد قالوا: إن الموت أشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض. لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح، فكيف إذا كان المتناول هو نفس الروح.

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدّة ألمه لأن الكرب قد نال منه وغلب على كل موضع منه فهدّ كل قوّة وضعّف كل جارحة فلم يترك له قوة الاستغاثة.

فتشوّش عقله وسكت لسانه وضعفت أطرافه فيود لو أنه يقدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، ولكنه لا يقدر على ذلك. فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزوع الروح وجذبها خواراً وغرغرة في حلقه وصدره، وقد تغيّر لونه. فترتفع الحدقتان إلى أعالي جفونه، وتتقلّص الشفتان واللسان إلى أصله وترتفع الأنثيان إلى أعالي موضعهما وتخضرّ أنامله. ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه حتى يبلغ النزع الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة حيث قال رسول الله ﷺ:

«تقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[١].

وقيل لأمير المؤمنين علي عليه السلام صف لنا الموت فقال:

«على الخبير سقطتم، الموت هو أحد ثلاثة أمور ترد عليه: إما بشارة بنعيم الأبد، واما بشارة بعذاب الأبد، واما بتخويف وتهويل لا يدري من أي الفرق هو. أما وليّنا المطيع لأمرنا فهو المبشّر بنعيم الأبد. وأما عدوّنا المخالف لأمرنا فهو المبشّر بعذاب الأبد، أما المبهم أمره الذي لا يدري ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه يأتيه الخبر مبهما مخوفاً ثم لن يسوّيه الله بأعدائنا ويخرجه من النار بشفاعتنا. فاحتملوا وأطيعوا ولا تتكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله فإن من المسرفين من لا تلحقه

---

(١) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٢٥٣.

شفاعتنا إلا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة»[1].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«أعظم سرور يرد على المؤمنين إذ نقلوا عن دار النكد إلى النعيم الأبد، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذ نقلوا عن جنتهم إلى نار لا تبيد ولا تنفد»[2].

ولما اشتد الأمر على الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنهم كانوا إذا اشتد بهم الأمر تغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم ورجفت جنوبهم، أما الحسين عليه السلام وبعض من معه من خواصه فقد كانت تشرق ألوانهم وتهدأ جوارحهم وتسكن نفوسهم فقال بعضهم لبعض: انظروا إليه لا يبالي بالموت، فقال الحسين عليه السلام:

«صبراً بني الكرام، فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم من البؤس والضرّ إلى الجنان الواسعة والنعم الدائمة، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وهو لأعدائكم كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب أليم. إن أبي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جناتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت»[3].

---

(١) معاني الأخبار: ص ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٨٨.

(٣) المصدر السابق.

وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام: ما الموت؟ فقال:

«للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة وفك قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح وأوطأ المراكب وآنس المنازل، وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن المنازل الأنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب»(١).

وقيل للإمام الباقر عليه السلام: ما الموت؟ فقال:

«هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة إلا أنه طويل مدّته لا ينتبه إلى يوم القيامة فمنهم من رأى في منامه من أصناف الفرح ما لا يقادر قدره ومنهم من رأى في منامه من أصناف الأهوال ما لا يقادر قدره فكيف حال فرحه في الموت ووجله فيه هذا هو الموت فاستعدوا له»(٢).

وقيل للإمام الصادق عليه السلام: صف لنا الموت فقال:

«هو للمؤمن كأطيب ريح يشمه فينعس [فيتنفس ـ خ] لطيبه فيقع التعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلدغ الأفاعي وكلسع العقارب وأشد، قيل: فإن قوماً يقولون: إنه هو أشد من نشر بالمناشير وقرض

(١) معاني الأخبار: ٢٨٩.
(٢) المصدر السابق.

بالمقاريض ورضخ بالحجارة وتدوير قطب الأرحية (الطاحون) في الأحداق؟ فقال: كذلك هو على بعض الكفارين والفاجرين، ألا ترون منهم من يعاين تلك الشدائد فذلكم الذي هو أشد من هذا إلا من عذاب الآخرة، فهذا أشد من عذاب الدنيا.

قيل: فما بالنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفي وهو يتحدث ويضحك ويتكلم وفي المؤمنين من يكون أيضاً كذلك وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد؟

فقال: ما كان من راحة هناك للمؤمنين فهو عاجل ثوابه، وما كان من شديدة فهو تمحيصه من ذنوبه ليردّ إلى الآخرة نقيّاً نظيفاً مستحقاً لثواب الله ليس له مانع دونه. وما كان من سهولة هناك على الكافرين فليوفّى أجر حسناته في الدنيا ليردّ إلى الآخرة وليس له إلا ما يوجب عليه العذاب، وما كان من شدّة هناك على الكافرين فهو ابتداء عقاب الله له بعد نفاد حسناته. ذلكم بأن الله عدل لا يجور»[١].

ودخل موسى بن جعفر عليه السلام على رجل قد عرق في سكرات الموت وهو لا يجيب داعياً فقالوا له: يا بن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف حال صاحبنا وكيف الموت؟ فقال: «إن الموت هو المصفاة

---

(١) معاني الأخبار: ص ٢٨٧.

يصفّي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم وكفارة آخر وزر عليهم، ويصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذة أو نعمة أو رحمة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم. وأما صاحبكم هذا فقد تخلّى من الذنوب وصفّي من الآثام تصفية وخلص حتى نقي كما ينقّى الثوب من الوسخ وصلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد»(١).

وروي أن رجلاً من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام مرض فعاده فقال:

«كيف تجدك فقال: لقيت الموت بعدك - يريد به ما لقيه من شدّة مرضه - فقال: كيف لقيته؟ قال: أليماً شديداً، ما لقيته إنما لقيت ما ينذرك به ويعرّفك بعض حاله. إنما الناس رجلان مستريح بالموت ومستراح به منه، فجدّد الإيمان بالله والنبوّة والولاية لنا تكن مستريحاً...»(٢).

وقيل لمحمد بن عليّ بن موسى عليهم السلام: ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت فقال:

«لأنهم جهلوه وكرهوه ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله حقاً لأحبوه، وليعلموا أن الآخرة خير لهم من الدنيا. - ثم قال - يا أبا عبد الله ما بال الصبي والمجنون يمتنع من الدواء المنقي لبدنه والنافي للألم عنه؟ فقال: لجهلهم بنفع الدواء، قال:

---

(١) معاني الأخبار: ص ٢٨٩.

(٢) معاني الأخبار: ص ٢٩٠.

والذي بعث محمداً بالحق نبياً إن من قد استعد للموت حق الاستعداد فهو أنفع لهم من هذا الدواء لهذا العلاج، أما أنهم لو علموا ما يؤدي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبوه أشد مما يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات»[١].

ودخل علي بن محمد عليه السلام على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع من الموت فقال له:

«يا عبد الله تخاف من الموت لأنك لا تعرفه، أرأيتك إذا اتّسخت وتقذّرت وتأذيت بما عليك من الوسخ والقذر عليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أن الغسل في الحمام يزيل عنك ذلك كله أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك؟ أوما تكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك؟ قال: بلى يا بن رسول الله، قال: فذلك الموت هو ذلك الحمام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك عن سيئاتك، فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كل غمّ وهم وأذى ووصلت إلى كل سرور وفرح، فسكن الرجل ونشط واستسلم وغمض عين نفسه ومضى لسبيله»[٢].

---

(١) معاني الأخبار: ص ٢٩٠.

(٢) المصدر السابق.

وسئل الحسن بن علي عليه السلام عن الموت ما هو فقال:

«هو التصديق بما لا يكون، ان أبي حدثني بذلك عن أبيه عن جدّه عن الصادق عليه السلام أنه قال: إن المؤمن إذا مات لم يكن ميّتاً وإن الكافر هو الميت، إن الله عز وجل يقول: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ يعني المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن»[1].

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال:

«يا رسول الله ما بالي لا أحب الموت؟ فقال: لك مال؟ فقال: نعم، قال صلى الله عليه وآله: قدّمته، قال: لا، قال صلى الله عليه وآله: فمن ثمة لا تحبّ الموت»[2].

وقال رجل لأبي ذر رحمة الله عليه:

«ما بالنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وخرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب. وقيل له: كيف ترى قدومنا على الله؟ فقال: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، قيل: فكيف ترى حالنا عند الله قال: اعرضوا أعمالكم على الكتاب إن الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ

---

(١) معاني الأخبار: ص ٢٩٠.

(٢) رواه الصدوق في الخصال: ج ١ ص ١٠.

﴿ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾، فقال الرجل: فأين رحمة الله؟ قال ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾»[(١)].

فهذه سكرات الموت، ودواهي الموت ثلاثة:

- الأولى: شدة النزع كما ذكرنا.

- الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب. فلو رأى صورته التي عليها يقبض روح العبد المذنب أعظم الرجال قوّة لما تحمل رؤيته. فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت:

«هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر؟ قال: فأعرض عني، فأعرض عليه السلام عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومنخريه لهب النار والدخان، فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى. فقال عليه السلام: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه»[(٢)].

أما المطيع فإنه يرى ملك الموت في أحسن صورة وأجملها. فقد روي:

«إن إبراهيم صلوات الله عليه كان رجلاً غيوراً،

---

(١) كتاب الاعتقادات: الصدوق، ص ٧٧.

(٢) جامع الأخبار: فصل ١٣٥.

وكان له بيت يتعبّد فيه فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربها. فقال: أنا ربها، قال: أدخلنيها من هو أملك لها مني ومنك، فقال إبراهيم عليه السلام: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت. فقال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمنين؟ قال: نعم فأعرض عني، فأعرض عنه، ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه»(١).

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين. فقد قيل: «إنّ ما من ميّت يموت حتى يتراءى له الملكان الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنا خيراً فربّ مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح قد أحضرتنا. وإن كان فاجراً قالا: لا جزاك الله عنا خيراً فربّ مجلس سوء قد أجلستنا وعمل غير صالح قد أحضرتنا وكلام قبيح قد أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيراً»(٢).

وذلك حين شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

ـ الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم. فإن

---

(١) جامع الأخبار: فصل ١٣٥.
(٢) جامع الأخبار: فصل ١٣٣ في القبر.

الإنسان في حال السكرات وقد تخاذلت قواه واستسلمت روحه للخروج فإنها لا تخرج قبل أن يسمع من ملك الموت إحدى بشارتين؛ إما أبشر يا عدو الله بالنار أو أبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب القلوب والألباب. وقد قال النبي ﷺ:

«لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره، وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار»[١].

وقال ﷺ:

«من أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، فقالوا: كلنا نكره الموت، قال: ليس ذاك بذاك، إن المؤمن إذا فرّج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه»[٢].

وعن النبي ﷺ قال:

«إن الله تعالى إذا رضي عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى عبدي فلان فأتني بروحه لأريحه، حسبي من عمله قد بلوته بالسرّاء فوجدته حيث أحب، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشر ببشارة سوى بشارة صاحبه، ويقوم الملائكة صفّين لخروج روحه معهم الريحان، فإذا نظر إليهم ابليس وضع يده على رأسه ثم صرخ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت.

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت.

قال: فيقول له جنوده: ما لك يا سيدنا، فيقول: أما ترون ما أعطي هذا العبد من الكرامة أين كنتم عن هذا؟ قالوا: قد جهدنا به ولكنّه كان معصوماً»[1].

وعن سدير الصيرفي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

«جعلت فداك يا بن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: لا والله إنه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت: يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: وتمثّل له رسول الله أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذرّيتهم عليهم السلام فقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه مناد من قبل رب العزّة فيقول: يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته ارجعي إلى ربك راضية بالولاء مرضية بالثواب، فادخلي في عبادي يعني محمد وأهل بيته، وادخلي جنتي، فما شيء أحب إليه من استلال روحه واللّحوق بالمنادي»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ١٢٨ رقم ٢.

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال:

«إن الرجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى، قلت: جعلت فداك وما يرى؟ قال: يرى رسول الله فيقول له رسول الله: أنا رسول الله أبشر، قال: ثم يرى علي بن أبي طالب فيقول: أنا علي بن أبي طالب الذي كنت تحبّه أنا أنفعك اليوم. قال: قلت له: أيكون أحد من الناس يرى هذا ثم يرجع إلى الدنيا، قال: لا، إذا رأى هذا أبداً مات وأعظم ذلك. قال: وذلك في القرآن قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾»[1].

وعن ابن أبي يعفور قال:

«كان خطّاب الجهني خليطاً لنا وكان شديد النصب لآل محمد عليهم السلام وكان يصحب نجدة الحروريّة قال: فدخلت عليه أعوده للخلط والتقيّة فإذا هو مغمى عليه في حدّ الموت فسمعته يقول: ما لي ولك يا علي، فأخبرت بذلك أبا عبد الله عليه السلام فقال: رآه وربّ الكعبة رآه وربّ الكعبة رآه وربّ الكعبة»[2].

أما الخوف من سوء الخاتمة فقد قطع قلوب العارفين، وهي من الدواهي العظيمة عند الموت أيضاً.

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ١٣٣ رقم ٨. سورة يونس، الآيتان: ٦٣ و٦٤.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ١٣٣ رقم ٩.

ما يستحب أن يكون عليه المحتضر عند الموت

إن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى. أما الصورة: فقد روي عن النبيﷺ أنه قال:

«راقبوا الميّت عند ثلاث؛ إذا رشح جبينه، وذرفت عيناه، ويبست شفتاه فهي من رحمة الله تعالى قد نزلت به، وإذا غطّ غطيط المخنوق[1] واحمرّ لونه واربدَّت شفتاه فهو من عذاب الله تعالى قد نزل به»[2].

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«إذا رأيت المؤمن قد شخص ببصره وسالت عينه اليسرى ورشح جبينه وتقلّصت شفتاه وانتشر منخراه

---

(١) الغطيط: صوت في الشقشقة، أي تردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

فأي ذلك رأيت فحسبك به»[1].

وقال عليه السلام في موت المؤمن:

«تدمع عيناه عند الموت، وان ذلك عند معاينة رسول الله صلى الله عليه وآله فيرى ما يسرّه، ثم قال: أما ترى الرجل يرى ما يسره وما يحب فتدمع عيناه ويضحك»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«إنّ وليّ عليّ عليه السلام يراه في ثلاثة مواطن حيث يسرّه عند الموت وعند الصراط وعند الحوض. وملك الموت يدفع الشيطان عن المحافظ على الصلوات ويلقّنه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في تلك الحالة العظيمة»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لقنوا موتاكم «لا إله إلا الله» فإن من كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة»[4].

وينبغي للملقن أن لا يلح بالتلقين ولكن يتلطّف فربما لا ينطلق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استثقاله التلقين وكراهيته

---

(١) الكافي: باب غسل الميت: رقم ٢٠.
(٢) المصدر السابق: رقم ١٩.
(٣) المصدر السابق: رقم ٢٧.
(٤) المصدر السابق: رقم ٣.

للكلمة، إذ يخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة.

ومعنى كلمة «لا إله إلا الله» أن يموت الرجل وليس في قلبه غير الله تعالى، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه على الموت في غاية النعيم. أما لو كان القلب مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسفاً على لذاتها فحتى لو نطق اللسان بها ولكن القلب لم يكن ناطقاً بها فإنه يخشى أن يكون في خطر المشيّة، لأن مجرد حركة اللسان لا تنفع إلا أن يتفضّل الله بالقبول.

قال الإمام الصادقعليه السلام:

«ما من أحد يحضره الموت إلا وكّل به إبليس من شياطينه أن يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتى تخرج نفسه، فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه. فإذا حضرتم موتاكم فلقنوهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حتى يموتوا»[١].

وفي رواية أخرى قال:

«فلقّنه كلمات الفرج بالشهادتين وتسمّي له الإقرار بالأئمةعليهم السلام واحداً بعد واحد حتى ينقطع عنه الكلام»[٢].

وعن الباقرعليه السلام قال:

«لو أدركت عكرمة عند الموت لنفعته، فقيل

---

(١) الوافي: ج ٣ باب تلقين المحتضر.

(٢) المصدر السابق.

للصادق عليه السلام: بماذا كان ينفعه؟ قال: يلقّنه ما أنتم عليه»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«والله لو أن عابد وثن وصف ما تصفون (أي أقرّ بأمر الإمامة) عند خروج نفسه، ما طعمتِ النار من جسده شيئاً أبداً»[2].

وعنه عليه السلام قال:

«أعقل ما يكون الرجل المؤمن عند موته»[3].

وقال عليه السلام:

«اعتقل لسان رجل من أهل المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي مات فيه فدخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له قل: «لا إله إلا الله» فلم يقدر عليه، فأعاد عليه فلم يقدر عليه، وعند رأس الرجل إمرأة فقال لها: هل لهذا الرجل أم، فقالت: نعم يا رسول الله أنا أمّه، فقال لها: أفرضيت أنت عنه أم لا؟ فقالت: لا بل ساخطة، فقال لها رسول الله: فإني أحب أن ترضي عنه، فقالت: قد رضيت عنه لرضاك يا رسول الله. فقال له قل: «لا إله إلا

(١) الكافي: ج ٣ ص ١٢٢ رقم ٣.
(٢) الكافي: ج ٣ ص ١٢٤ رقم ٨.
(٣) الفقيه: باب غسل الميت رقم ٤.

الله»، فقال: «لا إله إلا الله» فقال له قل: «يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير إقبل مني اليسير واعف عني الكثير إنك أنت العفوُّ الغفور». فقالها، فقال له ماذا ترى؟ قال: أرى أسودين قد دخلا عليّ قال: أعدها فأعادها، فقال: ماذا ترى؟ قال: قد تباعدا عني ودخل أبيضان وخرج الأسودان فما أراهما ودنا الأبيضان مني الآن يأخذان بنفسي فمات من ساعته»[١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«إذا حضرتم ميّتاً فقولوا له هذا الكلام ليقوله»[٢].

أما حسن الظن فهو من الأمور المستحبة في هذا الوقت، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله:

«يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»[٣].

ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله على شاب وهو يموت فقال:

«كيف تجدك، قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوقت إلا أعطاه الله الذي يرجو وآمنه من الذي يخاف».

---

(١) الفقيه: باب غسل الميت رقم ٥.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ١٢٤ رقم ١٠.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب.

حكايات عن لقاء ملك الموت

عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال:

«قيل لملك الموت: كيف تفيض الأرواح وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟ فقال: ادعوها فتجيبني، قال: وقال ملك الموت: إن الدنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما يشاء، والدنيا عندي كالدرهم في كف أحدكم يقلّب كيف يشاء»[1].

وقيل للصادقعليه السلام:

«يعلم ملك الموت نفس من يقبض؟ قال: لا، إنما هي صكاك تنزل من السماء اقبض نفس فلان بن فلان»[2].

- حكي أن ملكاً من ملوك الأرض أراد أن يركب إلى أرض

---

(١) الفقيه: ص ٣٢.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ٢١.

فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات. وكذلك طلب دابة فلم تعجبه حتى أتي بدواب فركب أحسنها، فجاء إبليس فنفخ في منخريه نفخة فملأه كبراً ثم سار وسارت معه الجنود، وهو لا ينظر إلى الناس كبراً. فجاء إليه رجل رثّ الهيئة فسلّم عليه فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال: أرسل اللّجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً، وقال: إن لي إليك حاجة، قال: اصبر حتى انزل، قال: لا الآن، فقهره على لجام دابته فقال: اذكرها، قال: هي سرّ فأدنى إليه رأسه وقال له: أنا ملك الموت فتغيّر لون الملك واضطرب لسانه ثم قال: دعني حتى أرجع إلى أهلي فأقضي حاجتي وأودعهم. قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً، فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة.

ثم لقي ملك الموت عبداً مؤمناً فسلّم عليه فردّ السلام فقال: إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك، فقال: هات فسارّه فقال: أنا ملك الموت، فقال: مرحباً وأهلاً بمن طالت غيبته عليّ، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إليّ أن ألقاه منك، فقال: ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها، فقال: ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحبّ إليّ من لقاء الله، فقال: اختر على أيّ حال شئت أن أقبض روحك فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إني أمرت بذلك، قال: فدعني حتى أتوضأ وأُصلي ركعتين فاقبض روحي وأنا ساجد، فقبض روحه وهو ساجد.

- وحكي أيضاً أن رجلاً من بني إسرائيل جمع مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه: أروني أصناف أموالي، فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره فلما نظر إليها بكى تحسراً عليها، فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له: ما يبكيك، فوالذي خوّلك ما أنا

بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدنك، فقال له: المهلة حتى أفرّقه، قال: هيهات انقطعت عنك المهلة، فهلاّ كان ذلك قبل حضور أجلك، فقبض روحه.

- وحكي أيضاً أن ملك الموت قبض روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله، ثم عرج إلى السماء فقالت له الملائكة: لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه، قال: كنت قد أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره ولكونه في فلاة لا متعهّد له، فقالت له الملائكة: هل الجبار الذي قبضت روحه الآن هو ذلك المولود الذي رحمته، فقال ملك الموت: سبحان اللطيف لما يشاء.

- وحكي أيضاً أنه بينا جبّار من الجبابرة من بني إسرائيل كان جالساً في منزله فدخل ببعض أهله، وإذ به ينظر إلى شخص قد دخل إلى باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال: من أنت ومن أدخلك داري؟ قال: أما الذي أدخلني الدار فربّها، أما أنا فالذي لا يمنعني الحجاب ولا استأذن على الملوك ولا أخاف سطوة السلاطين ولا يمتنع عني كل جبار عنيد ولا شيطان مريد، قال: فسقط في يدي الجبار وأرعد حتى سقط منكبّاً لوجهه، ثم رفع إليه رأسه مستعطفاً متذلّلاً فقال له: أنت إذاً ملك الموت، قال: أنا هو، قال: فهل أنت ممهلني حتى أحدث عهداً، فقال له: هيهات انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل، قال: فإلى أين تذهب بي؟ قال: إلى عملك الذي قدّمته وإلى بيتك الذي مهّدته، قال: فإني لم أقدّم عملاً صالحاً ولم أمهّد بيتاً حسناً، قال: فإلى لظى، نزّاعة للشّوى، ثم قبض روحه فسقط بين أهله فمن صارخ وباك.

وروي أيضاً أن ملك الموت دخل على سليمان بن داود صلوات الله عليهما فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل لسليمان عليه السلام: من هذا؟ قال: هذا ملك الموت، قال: لقد رأيته ينظر إليّ كأنه يريدني، قال: فماذا تريد؟ قال: أريد أن تخلّصني منه فتأمر الريح حتى تحملني إلى أقصى الهند، فأمر سليمان عليه السلام الريح ففعل الريح ذلك. ثم قال سليمان عليه السلام لملك الموت بعد أن أتاه ثانية: رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي، قال: نعم كنت أتعجب منه لأني كنت أمرت أن أقبض روحه في أقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فتعجّبت من ذلك.

آداب حضور الجنائز

إن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الفطنة، أما أهل الغفلة فلا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم يظنون أنهم ينظرون إلى جنازة غيرهم ولا يحسبون أنهم سيحملون يوماً على الجنائز، أو ربما يحسبون ذلك ولكن لا يظنونه أنه قريب منهم، فلا يعلمون أن المحمولين على الجنائز كلهم كانوا هكذا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض زمانهم.

فلا ينبغي أن ينظر عبد إلى جنازة إلا وينبغي أن يعدّ نفسه محمولاً وربما كان الأمر قريباً جداً، فلعله يكون اليوم أو الغد...

أما أسباب الغفلة عن هذا التفكر والاتعاظ فهو قساوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله واليوم الآخر.

فمن آداب حضور الجنائز؛ التفكر والتنبه والاستعداد والمشي على هيئة التواضع.

ومن آدابه أيضاً حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة مخطرة ولا يدري الإنسان حقيقتها. حكي أن رجلاً من المنهمكين في الفساد مات

في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدر به أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فاستأجرت حمالين وحملوه إلى المصلى فما صلى عليه أحد، فحملوه إلى الصحراء للدفن وكان على جبل قريب زاهد من الزهاد وكان في حاله كالمنتظر للجنازة، فما أن وصلت حتى قصدها ليصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد، فصلّى الزاهد وصلوا عليه، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال لهم: قيل لي في المنام: انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها إلا امرأة فصلّ عليه فإنه مغفور له فزاد تعجّب الناس، فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته؟ فقالت: كماهو معروف، كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر، فقال لها: انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير، قالت: نعم ثلاثة أشياء؛ كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصباح فيبدّل ثيابه ويتوضأ ويصلي الصبح، ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق، والثاني: إنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقّد لهم. والثالث: إنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا ربّ أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث، ويعني به نفسه. فانصرف الزاهد وارتفع تعجّبه.

زيارة القبور والدعاء للميّت

إن زيارة القبور مستحبة بشكل عام للتذكر والاعتبار، وزيارة قبور الصالحين مستحبة أيضاً لأجل التبرك بالإضافة إلى الاعتبار. فعن الإمام علي عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة للآخرة غير أن لا تقولوا هجراً»[1].

وعن أبو ذر ـ رضي الله عنه ـ قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: زر القبور تذكّر بها الآخرة واغسل الموتى فإن في معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة، وصل على الجنائز لعلّ ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله»[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

(١) مجمع الزوائد: ج ٣ ص ٥٨.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ١ ص ١٧٧.

«زوروا موتاكم فسلّموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة»(١).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال:

«إن فاطمة بنت النبي كانت تزور قبر عمّها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده».

وروي أيضاً:

«إنها عليها السلام تأتي قبور الشهداء كل غداة سبت فتأتي قبر حمزة فتترحّم عليه وتستغفر له»(٢) وعن محمد ابن مسلم أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام: الموتى نزورهم؟ فقال:

«نعم، قلت: فيعلمون بنا إذا أتيناهم؟ فقال: إي والله إنهم ليعلمون بكم ويفرحون بكم ويستأنسون إليكم، قال: فأي شيء نقول إذا أتيناهم؟ قال: قل «اللهم جاف الأرض عن جنوبهم وصاعد إليك أرواحهم ولقّنهم منك رضواناً وأسكن إليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم وتؤنس به وحشتهم إنك على كل شيء قدير»(٣).

وقال الإمام الرضا عليه السلام:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في القبور.

(٢) الفقيه: باب التعزية والجزع رقم ٣٦.

(٣) الفقيه: باب التعزية والجزع رقم ٣٩.

«ما من عبد زار قبر مؤمن فقرأ عليه إنا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرّات إلا غفر الله له ولصاحب القبر»[1].

وقال النبي ﷺ:

«من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب عند الله باراً»[2].

وروي عن الرسول ﷺ أنه قال:

«إنّ الرجل ليموت والداه وهو عاق بهما فيدعو الله لهما من بعد موتهما فيكتبه الله من البارّين»[3].

وقال النبي ﷺ:

«من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي»[4].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل: كيف التسليم على أهل القبور؟ فقال:

«تقول: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين أنتم لنا فرط ونحن إن شاء الله بكم لاحقون»[5].

وسأل إسحاق بن عمار أبا الحسن الأول عليه السلام عن المؤمن يزور أهله فقال:

---

(١) الفقيه: باب التعزية والجزع رقم ٤٠.
(٢) أخرجه الترمذي في النوادر.
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في القبور.
(٤) مجمع الزوائد: ج ٤ ص ٢.
(٥) الكافي: ج ٣ ص ٢٢٩ رقم ٥.

«نعم، قال: في كم؟ قال: على قدر فضائلهم، منهم من يزور في كل يوم، ومنهم من يزور في كل يومين، ومنهم من يزور في كل ثلاثة أيام، قال: رأيت في مجرى كلامه أنه يقول: أدناهم جمعة، فقال له في أي ساعة؟ قال: عند زوال الشمس أو قبيل ذلك فيبعث الله معه ملكاً يريه ما يسرّ به ويستر عنه ما يكرهه، فيرى سروراً ويرجع إلى قرّة عين»[(١)].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«إن الكافر يزور أهله فيرى ما يكرهه ويستر عنه ما يحبّ»[(٢)].

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«ما الميّت في قبره إلا كالغريق المتغوّث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وان هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار»[(٣)].

وعن عمر بن يزيد قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيصلّى عن الميّت؟ قال:

(١) الفقيه: باب التعزية والجزع رقم ٤١.
(٢) المصدر السابق: رقم ٤٢.
(٣) أخرجه الديلمي في الفردوس.

نعم حتى أنه ليكون في ضيق فيوسّع الله عليه ذلك الضيق ثم يؤتى فيقال له: خفِّف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك قال: فقلت له: فأشرك بين رجلين في ركعتين؟ قال: نعم، فقال عليه السلام: إن الميت ليفرح بالترحم عليه والاستغفار له كما يفرح الحي بالهدية تهدى إليه»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام أيضاً:

«من عمل من المسلمين عن ميّت عملاً صالحاً أضعف له ونفّع الله به الميت»[2].

وكما ويستحب تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له. والهدف من زيارة القبور للزائرين الاعتبار وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميّت ولا عن الاعتبار به. وإنما يحصل له الاعتبار من خلال تصوّر حال الميت وما يجري عليه من تفرق أجزائه وكيف يبعث من قبره وانه قريب اللحوق به.

ويستحب أيضاً الثناء على الميت وأن لا يذكر إلا بالجميل، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه»[3].

وقال صلى الله عليه وآله:

---

(١) الفقيه: باب التعزية والجزع رقم ٥٣.
(٢) المصدر السابق: رقم ٥٥.
(٣) أخرجه أبو داود: ج ٢ ص ٥٧٣.

«لا تسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء»[1].

وقال ﷺ:

«لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا»[2].

وقال ﷺ:

«لا تذكروا أمواتكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثموا وأن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه»[3].

(١) أخرجه الترمذي: ج ٩ ص ١٥١.

(٢) أخرجه البخاري: ج ٣ ص ١٢٣.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الموت..

حقيقة الموت

إن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطأوا فيها، فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النباتات. وهذا هو رأي الملحدين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وظن قوم أن الإنسان ينعدم بالموت ولا يتألم ولا يتنعم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت المحشر. وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً. وكل هذه الظنون فاسدة ومائلة عن الحق، بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار؛ أن الموت معناه تغيّر حال فقط، وإن الروح باقية بعد مفارقة الجسد وهي إما معذّبة أو منعّمة.

ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرّفها به بخروجه عن طاعتها، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها، فتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين...

أما العلم فإن الروح تعلم حقيقة الأشياء بنفسها من دون آلة، وكذلك قد تتألم بنفسها بأنواع الحزن والكمد، وتتنعم بأنواع الفرح

والسرور، وكل ذلك لا تعلق له بالأعضاء، وما هو وصف للروح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسد، أما ما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إليه. ولا يبعد أن تعاد إلى الجسد في القبر كما لا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده. وتعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل الأعضاء بفساد يصيبها أو لشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها، فتكون الروح العالمة المدركة باقية ومستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها البعض الآخر.

أما الموت فهو عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها، أما الروح والتي بها يدرك الإنسان العلوم والآلام والغموم والأفراح واللذات فإنها وإن بطل تصرفها بالأعضاء بسبب الموت إلا أن العلوم والإدراكات الأخرى لا تبطل، ومنها الأفراح والغموم واللذات والآلام أيضاً.

فالإنسان في الحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات وهذا لا يموت ولا ينعدم. فحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهي باقية، نعم إنما يكون تغيّر حاله من جهتين؛ الأولى: انه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه والثاني: انه سلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وأملاكه.

ولذا إن كان للإنسان شيء في الدنيا يأنس به ويستريح إليه فإنه سيعظم تحسّره عليه بعد الموت ويتضاعف شقاؤه عند مفارقته. أما لو لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به، عظم نعيمه وتمّت سعادته إذا خلّي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله. وينكشف للإنسان بالموت ما لم يكن مكشوفاً له حال الحياة، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن

مكشوفاً له في النوم، فالناس كما قيل نيام فإذا ماتوا انتبهوا. وأول ما ينكشف له ما يضرّه وما ينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سرّ قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا، فإذا انقطعت هذه الشواغل انكشفت له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسّر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص منها. وعند ذلك يقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، وكل ذلك ينكشف له عند انقطاع النفس وقبل الدفن. فتشتعل فيه نيران فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية والتي انشغل بها عن الزاد والغاية والمقصد. أما من كان همّه التزود للآخرة فإذا بلغ مقصده فرح بمفارقته الدنيا لأنه لم يكن يريد الزاد بعينه، وهذه حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة، وكان يود لو تنقطع ضرورته ليستغني بالكامل عنها.

فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة. نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة حقيقة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها. ولم يؤذن الرسول ﷺ بأن يتكلم في الروح، وكان يكتفي بقوله تعالى: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ ولا يزيد عليه أبداً.

فليس إذاً لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سرّ الروح وإن اطلع عليه، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت. ومما يدل على أن الموت ليس انعدام الروح آيات منها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ولما قتل صناديد العرب يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال:

«يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقيل: يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال ﷺ: والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب»[2].

فكلام رسول الله ﷺ نصّ على بقاء روح الشقي وبقاء إدراكها ومعرفتها، والآية الكريمة نصّ على بقاء أرواح الشهداء. والميت لا يخلو عن سعادة أو شقاء كما قال رسول الله ﷺ:

«القبر إما حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنة»[3].

وهذا نصّ أيضاً في أن الموت معناه تغيّر حال فقط. وانه عند الموت سينال الميت نصيبه من الشقاء أو السعادة من غير تأخر، وإنما يتأخر عنه بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله. روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«الموت القيامة، من مات فقد قامت قيامته»[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩ و١٧٠.
(٢) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٣٦.
(٣) أخرجه الترمذي.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت.

وقال ﷺ:

«إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشيّة إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»[١].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«حرام على كل نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار»[٢].

ولهذا قيل: إنما مثل المؤمن حين تخرج روحه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فهو يتفسح في الأرض ويتقلّب فيها. وهي حال من تجافى عن الدنيا وتبرّم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله. وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه، فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذي كان به أنسُه. لذا فإن منتهى النعيم وأكمل اللذات إنما تكون للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما قدموا على القتال إلا وهم قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا، مشتاقين إلى لقاء الله، راضين بالقتل طلباً لمرضاته.

وإن تجرد القلب لحب الله قد يتفق وأن يكون في بعض الأحوال لا كلها بحيث انه قد لا يدركه الموت وهو على حالة الحب. أما القتل في سبيل الله فهو سبب لإدراك الموت على حالة الحب

(١) أخرجه البخاري: ج ٢ ص ١١٨.

(٢) بحار الأنوار ج ٣ باب ما يعاين المؤمن والكافر عند الموت.

والوصال، ولذلك أعظم فيه النعيم، ومعنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده كما قال الله تعالى:

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[1].

فكانت هذه أجمع عبارة لمعاني لذات الجنة، وأعظم العذاب أن يمنع الإنسان من مراده، كما قال الله تعالى:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[2].

روي أن رسول الله ﷺ قال لجابر:

«ألا أبشّرك يا جابر؟ ـ وكان قد استشهد أبوه يوم أحد ـ قال: بلى يا رسول الله بشّرك الله بالخير. قال: إن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه فقال: تمنّ عليَّ عبدي ما شئت أعطيكه. قال: يا رب ما عبدتك حق عبادتك، أتمنّى عليك أن تردّني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيّك في سبيلك فأقتل فيك مرّة أخرى، فقال له: إنه قد سبق مني انك إليها لا ترجع»[3].

والمؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالنسبة له كالسجن والمضيق، ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه مختلف أنواع الأشجار والأزهار والطيور والثمار، فإنه لا يشتهي

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٦.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٥٤.

(٣) رواه ابن ماجة في السنن: رقم ٢٨٠٠.

العود إلى السجن المظلم. وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً فقال لرجل مات:

«أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها، فإن كان قد رضي فلا يسرّه أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسرّ أحدكم أن يرجع إلى بطن أمّه»[١].

وقال النبي ﷺ:

«إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمّه إذا خرج من بطنها بكى على خروجه حتى إذا رأى الضوء لم يحب أن يرجع إلى بطن أمّه، فكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربّه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى مكانه»[٢].

وقال النبي ﷺ:

«لا تفضحوا أمواتكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«تعرض الأعمال على رسول الله ﷺ، أعمال العباد كل صباح أبرارها وفجّارها فاحذروها وهو قول

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الله: ﴿ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ وسكت»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً أنه قال:

«ما لكم تسوءون رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال رجل: كيف نسوؤه فقال: أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيه معصية ساءه ذلك، فلا تسوءوا رسول الله وسرّوه»[2].

قال عبد الله بن أبان الزيات:

«قلت للرضا عليه السلام: ادع لي ولأهل بيتي، فقال: أولست أفعل؟ والله إن أعمالكم لتعرض عليّ كل يوم وليلة؟ قال: فاستعظمت ذلك فقال لي: أما تقرأ كتاب الله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: هو والله علي بن أبي طالب عليه السلام»[3].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن الميت ليعرف من يغسّله ومن يحمله ومن يدفنه ومن يدليه في قبره»[4].

وقال النبي صلى الله عليه وآله:

«إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من

---

(١) الكافي: ج ١ ص ٢١٩ رقم ١.
(٢) المصدر السابق: رقم ٣.
(٣) المصدر السابق: رقم ٤.
(٤) مسند أحمد.

عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا، يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد ويسألونه ماذا فعل فلان؟ وماذا فعلت فلانة؟ وهل تزوج فلان؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال: مات قبلي، قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمّه الهاوية»[1].

وعن الإمام الصادقعليه السلام أنه قيل له:

«جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال: لا المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير ولكن في أبدان كأبدانهم»[2].

وفي رواية أخرىعليه السلام قال:

«فإذا قبضه الله صيّر تلك الروح في قالب كقالبه في الدنيا فيأكلون ويشربون، فإذا قدم عليهم القادم عرفوه بتلك الصورة التي كانت في الدنيا»[3].

وفي رواية أخرى:

«إنهم في الجنة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان»[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت.
(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٤ رقم ١.
(٣) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٥ رقم ٦.
(٤) رواه البرقي في المحاسن: ١٧٧.

وفي خبر آخر:

«إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تعارَفُ وتساءَلُ فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنها قد أفلتت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حيّاً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى هوى»[1].

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٤٤ رقم ٣.

عذاب القبر

إن كلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء. قال رسول الله ﷺ:

«يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا بن آدم ما غرّك بي ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود، ما غرّك بي إذ كنت تمرّ بي فدّاداً[1]، فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب للقبر فيقول: أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيقول القبر: إني إذا أتحوّل عليه خضراً ويعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إن للقبر كلاماً في كل يوم يقول: أنا بيت الغربة

(١) فداداً: أي ذا أمل كثير وخيلاء وسعي دائم.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٣ ص ٤٦.

أنا بيت الوحشة أنا بيت الدود أنا القبر أنا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران»[(١)].

روي أن رسول الله ﷺ خرج على جنازة رجل من الأنصار فجلس ﷺ على قبره منكّساً رأسه ثم قال:

«اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر - ثلاثاً - ثم قال: إن المؤمن إذا كان في قُبُل من الآخرة بعث الله إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه فيجلسون مدّ بصره فإذا خرجت روحه صلّى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه به، فإذا صعد بروحه قيل: أي ربّ عبدك فلان، فيقول: ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتى يقال: يا هذا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيّي محمد ﷺ قال: فينتهرانه انتهاراً شديداً وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾. ثم يأتيه آت حسن الوجه طيّب الريح

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٢ رقم ٢.

حسن الثياب فيقول: أبشر برحمة من ربك وجنات فيها نعيم مقيم، فيقول: وأنت فبشرك الله بخير من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، والله ما علمت إلا أنك كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً في معصية الله فجزاك الله خيراً.

قال: ثم ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنّة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيفرش له فرش من الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول: اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وأما الكافر فإنه إذا كان في قُبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد ومعهم ثياب من نار وسرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل: أي ربّ عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض، فيقول الله: ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشرّ إني وعدته ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتى يقال له: يا هذا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول: أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم، فيقول: بشّرك الله بشرّ من أنت

فيقول: أنا عملك الخبيث والله إن كنت لسريعاً في معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شراً، فيقول: فأنت فجزاك الله شراً، ثم يقيّض له أصمّ أعمى أبكم، معه مرزبّة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلّوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثم تعود فيه الروح فيضرب عنقه بها ضربة يسمعها من على الأرض غير الثقلين، قال: ثم ينادي مناد أن أفرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار»[(١)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«إن ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا وأوّل يوم من أيام الآخرة مثّل له ماله وولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول: والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً، فما لي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك، قال: فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محبّاً وإني كنت لكم محامياً فما لي عندكم؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها، قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً وإن كنت عليّ لثقيلاً فماذا عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتى أعرض

(١) أخرجه أبو داود: ج ٢ ص ٥٤٠.

أنا وأنت على ربك، قال: فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً (هو اللباس الفاخر) فقال: أبشر بروح وريحان وجنّة نعيم ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح المرتحل من الدنيا إلى الجنّة، وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا أدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما ويخدّان الأرض بأقدامهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولون له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: الله ربي وديني الإسلام ونبيّي محمد فيقولون له: ثبتك الله فيما تحبّ وترضى وهو قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، ثم يفسحان له في قبره مدّ بصره ثم يفتحان له باباً إلى الجنة، ثم يقولان له: نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإن الله يقول: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ قال: وإذا كان لربّه عدوّاً فإنه يأتيه أقبح من خلق الله زيّاً ورؤيا وانتنه ريحاً فيقول له: أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم، وإنه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يحبسوه، فإذا أدخل القبر أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثم يقولان له من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري

فيقولان: لا دريت ولا هديت، فيضربان يافوخه (الموضع الذي يتحرك من رأس الطفل إذا كان قريب العهد بالولادة) بمرزبة معهما ضربة ما خلق الله من دابة إلا وتذعر لها ما خلا الثقلين (الجن والإنس)، ثم يفتحان له باباً إلى النار يقولان له: نم بشرّ حال، فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزُّجّ (الرمح والحديدة التي في أسفله) حتى ان دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها، وهوامّها فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره»[1].

وقال النبي ﷺ:

«للمؤمن في قبره روضة خضراء ويرحّب له في قبره سبعين ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر. ـ ثم قال ـ: هل تدرون في ماذا أنزلت ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: عذاب الكافر في قبره يسلّط عليه تسعة وتسعون تنيناً، قال: هل تدرون ما التنين؟ ـ إنه ـ تسع وتسعون حيّة لكلّ حيّة سبعة رؤوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم القيامة»[2].

ولا ينبغي أن يتعجّب من هذا العدد من العقارب والحيّات فإن

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٣١ رقم ١.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٣ ص ٥٥.

أعدادها بقدر أعداد الأخلاق المذمومة؛ من الكبر والرياء والحسد والغلّ والحقد وسائر الصفات.

وهذه الصفات المذمومة بعينها هي المهلكات وهي نفسها تنقلب إلى عقارب وحيّات، والقوي منها يلدغ لدغ التنين، والضعيف منها يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحيّة. وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أنّ مقدار عددها لا يعرف إلا بنور النبوّة. فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفيّة، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، ومن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها، بل إن أقلّ درجات الإيمان التصديق والتسليم. ويمكن أن يحصل التصديق بهذه الحقائق من خلال ثلاثة أمور:

الأول: أن نعلم أن هذه الحقائق لا تشاهد بالعين المجردة الدنيوية، لأن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، فكل ما يتعلّق بالآخرة هو من عالم الملكوت. أما ترى كيف كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه ﷺ يشاهده. وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات، فكذلك الحيات والعقارب التي تلدغ في القبر فإنها ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وإنما تدرك بحاسة أخرى.

الثاني: أن نتذكر أمر النائم وهو أنه قد يرى في نومه حيّة تلدغه فيتألم لذلك حتى تراه في نومه يصيح ويعرق جبينه وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى باطنه ولا ترى حيّة موجودة حوله ولا عقرباً.

الثالث: أن نعلم أن الحيّة بنفسها لا تؤلم بل الذي يؤلم منها هو السمّ، ثم إن السمّ ليس هو الألم بل عذابنا من أثر السمّ، فلو حصل هذا الأثر من غير السم لكان العذاب والألم واقع لا محالة،

ولكن نحن عادة لا يمكن أن نعرف ذلك النوع من العذاب إلا عندما يضاف إلى السبب الذي يفضي إليه في العادة. والصفات المذمومة عند الموت تنقلب إلى آلام وأذى في النفس، فتكون آلامها كآلام لدغ الحيّات من غير ضرورة إلى وجود الحيّات والعقارب.

وانقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق أذى عند موت المعشوق. فالعشق كان لذيذاً في البداية ولكن بعد أن طرأ عليه الموت صار اللذيذ بنفسه مؤلماً، حتى ينزل بالقلب من أنواع العذاب والألم ما يتمنى معه العاشق أن ليته لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال.

وهذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميّت، فإنه قد أحب الدنيا فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه، بحيث إنه لو أخذ منه جميع ذلك في حياته وهو لا يرجو استرجاعه فإنه يعظم شقاؤه ويشتد عذابه، ويتمنى لو أنه لم يكن له مال قط ولا جاه حتى لا يتأذى بفراقه. والموت عبارة عن مفارقة كل ما يحبه الإنسان من الأمور الدنيوية دفعة واحدة.

فهذه حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه دفعة واحدة وتسلم إلى غيره، ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسّره على ما فاته من نعيم الآخرة والاحتجاب عن الله تعالى. فإن حبّ غير الله يحجب عن لقاء الله والتنعم بمشاهدته، ولا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال الله تعالى:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾[١].

(١) سورة المطففين، الآيتان: ١٥ و١٦.

أما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقاً إلى لقائه، فقد تخلّص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها، وقدم على محبوبه، وانقطعت عنه العوائق والصوارف وفاز بالنعيم المقيم والأمن والحياة الخالدة، ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

إذاً فكل ما يناله الإنسان من حظوظ الدنيا مما قد تعلق قلبه به فإنه سيبقى متأسفاً عليه ومعذّباً به عندما تحين لحظة الموت وتؤخذ منه. فمن كان مخفّفاً في الدنيا فقد سلم وهو معنى قولهم: «نجا المخفّون» وإن كان مثقلاً عظم عذابه.

فما من شيء من الدنيا يتخلّف عنك عند الموت إلاّ وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك. وإنما تكثر الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها.

سؤال منكر ونكير

قال النبي ﷺ:

«إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له: ما كنت تقول في النبي؟ فإن كان مؤمناً قال: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقولان: إنا كنّا نعلم أنك تقول ذلك، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً وينوّر له في قبره، ثم يقال له: نم، فيقول: دعوني أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقال له: نم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً فقال: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون شيئاً وكنت أقوله، فيقولان: إنا كنا لنعلم أنك تقول ذلك، ثم يقال للأرض: التئمي عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذّباً حتى

يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال يجيء الملكان منكر ونكير إلى الميّت حين يدفن، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يخطان الأرض بأنيابهما ويطئان في شعورهما فيسألان عن الميت من ربك؟ وما دينك؟ قال: فإذا كان مؤمناً قال: الله ربي وديني الإسلام، فيقولان له: ما تقول في هذا الرجل الذي خرج بين ظهرانيكم؟ فيقول: أعن محمد رسول الله تسألاني؟ فيقولان له: تشهد أنه رسول الله؟ فيقول: أشهد أنه رسول الله، فيقولان: نم نومة لا حلم فيها ويفسح له في قبره تسعة أذرع ويفتح له باب إلى الجنة ويرى مقعده فيها. وإذا كان الرجل كافراً دخلاَ عليه وأقيم الشيطان بين يديه، عيناه من نحاس فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في هذا الرجل الذي قد خرج من بين ظهرانيكم، فيقول: لا أدري، فيخلّيان بينه وبين الشيطان، فيسلِّطُ عليه في قبره تسعة وتسعين تنيناً ـ لو ـ واحداً منها نفخ على الأرض ما أنبت شجرة أبداً، ويفتح له باب إلى النار ويرى مقعده فيها»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ٤ ص ٢٩٣.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢٣٦ رقم ٧.

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«لا يسأل في القبر إلا من محض الإيمان محضاً أو محّض الكفر محضاً، والآخرون يلهون عنهم»[1].

وروي أن النبيصلى الله عليه وآله وسلم قال لعمر بن الخطاب:

«يا عمر كيف إذا أنت متّ فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك فغسّلوك وكفّنوك وحنّطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويبحثان التراب بأنيابهما فتلتلاك وترتراك كيف بك عند ذلك يا عمر؟ فقال: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: نعم، قال: إذاً اكفيكهما»[2].

وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغيّر بالموت إنما يتغيّر البدن والأعضاء، فيكون الميّت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذّات لا يتغير من عقله شيء. وليس المقصود بالعقل المدرك هذه الأعضاء، بل هو شيء باطني ليس له طول ولا عرض.

وسئل الإمام الصادقعليه السلام: أيفلت من ضغطة القبر أحد؟ قال:

«نعوذ بالله منها ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر،

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٣٥ رقم ١.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور.

إنّ رقيّة لما قتلها عثمان وقف الرسول ﷺ على قبرها فرفع رأسه إلى السماء فدمعت عيناه وقال للناس: إني ذكرت هذه وما لقيت فرقّقت لها فاستوهبتها من ضمّة القبر، قال: فقال: اللهم هب لي رقيّة من ضمّة القبر فوهبها الله له، قال: وان رسول الله ﷺ خرج في جنازة سعد وقد شيّعه سبعون ألف ملك فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء ثم قال: مثل سعد يضمّ، قال الراوي: جعلت فداك إنا نحدّث أنه كان يستخفّ بالبول، فقال: معاذ الله، إنما كان من زعارة (شراسة الخلق) في خلقه على أهله»[1].

وعن عمر بن يزيد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام:

«إني سمعتك وأنت تقول كل شيعتنا في الجنّة على ما كان فيهم؟ قال: صدقتك كلهم والله في الجنة، قال: قلت: جعلت فداك إن الذنوب كثيرة كبار؟ فقال: أما في القيامة فكلكم في الجنّة بشفاعة النبي المطاع أو وصي النبي، ولكني والله أتخوّف عليكم في البرزخ، قلت: وما البرزخ؟ قال: القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٣٦ رقم ٦.

(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٢ رقم ٣.

«إذا دخل المؤمن قبره، كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره والبرّ يظلُّ عليه، ويتنحى الصبر ناحية، وإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة: دونكما صاحبكما فإن عجزتما عنه فأنا دونه»[1].

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢٤٠ رقم ١٣.

النفخ في الصور

لقد عرفت فيما سبق شدّة أحوال الميت عند سكرات الموت والخطر فيه على العاقبة، ثم ما يعانيه الميت من ظلمة القبر وديدانه، وسؤال منكر ونكير له إن كان من المغضوب عليه، والأعظم من ذلك كله الأخطار التي يواجهها الميت عند نفخ الصور والبعث ويوم النشور والعرض على الجبّار والسؤال عن القليل والكثير، ونصب الميزان، ثم مجاوزة الميت للصراط مع رقته وحدّته، ثم انتظار النداء عند القضاء إما بالسعادة أو بالشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بد من معرفتها والإيمان بها، ثم تطويل الفكر فيها حتى تنبعث في القلب دواعي الاستعداد لها.

مع العلم أن أكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، ويدل على ذلك شدّة تشمرهم واستعدادهم لحرِّ الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحرّ جهنّم وزمهريرها. نعم إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ولكن غفلت عنه قلوبهم. وقد قال النبيﷺ إن الله تعالى قال:

«شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، وكذّبني وما ينبغي له أن يكذّبني، أما شتمه إياي فيقول: إن لي

ولداً، وأما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني»[1].

وإنما فتور البواطن عن قوّة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلّة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور. فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قويّ الإيمان بها فاشعر القلب تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكر والاعتبار لسلبت الراحة والقرار عن قلب الإنسان، ولشمّر عن ساعد الجسد واستعد للعرض على الجبار. فيتفكر فيما يقرع سمع سكان القبور من شدّة نفخ الصور، وهي صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة من قبورهم التي طال فيها بلاؤهم وقد أعجمهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عليهم من الغموم والهموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[2].

وقال عز اسمه:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾[3].

وقال عز وجل:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري: ج ٤ ص ١٢٩.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٣) سورة المدثر، الآيتان: ٨ و٩.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

وقال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1].

فلو لم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك كافياً وكان من الجدير أن يتقى منها. فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السماوات والأرض، أي يموتون بها إلا من شاء الله، وهم بعض الملائكة، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ»[2].

وقيل إن الصور هو القرن، وذلك أن إسرافيل وضع فاه على القرن وهو كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض وهو شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر أن ينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صعق من في السماوات والأرض، حتى يموت كل حيوان من شدة الفزع إلا ما شاء الله وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبرئيل ثم ميكائيل ثم روح إسرافيل ثم يأمر ملك الموت فيموت، ثم يلبث

(١) سورة يس، الآيات: ٤٨ ـ ٥٢.
(٢) أخرجه الترمذي: ج ٩ ص ٢٦١.

الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ النفخة الثانية وهو قوله تعالى:

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

أي قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث. وقال رسول الله ﷺ حين وصف أمر صاحب الصور:

«فأهوى به إلى فيه وقدّم رجلاً وأخّر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة»[1].

فتفكر في ذل الخلائق وانكسارهم واستكانتهم عند البعث خوفاً من هذه النفخة، وانتظاراً لما سيقضى عليهم بالسعادة أو بالشقاء، وأنت موجود فيهم ومنكسر كإنكسارهم ومتحيّر مثلهم...

وإن ملوك الأرض في ذلك اليوم هم أذلّ أهل الجمع وأصغرهم وأحقرهم لذا فإنهم يوطؤون بالأقدام كالذر، وعند ذلك تقبل الوحوش منكّسة رؤوسها ذليلة ليوم النشور قد حيرتها شدّة الصعقة وهول النفخة وذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾[2].

ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوّها فأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾[3].

فتفكر في حالك وحال قلبك هنالك!!

---

(١) رواه البخاري في التاريخ.

(٢) سورة التكوير، الآية: ٥.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٨.

أرض المحشر

بعد البعث والنشور يساق الناس حفاة عراة إلى أرض المحشر، وهي أرض بيضاء سهلة لا يرى فيها عوجاً ولا انخفاضاً ولا ارتفاعاً ولا يرى عليها ربوة يختفي الإنسان خلفها ولا وهدة ينخفض فيها عن الأعين، بل هو صعيد واحد لا تفاوت فيه، يساق الناس إليه زمراً.

فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض فساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة، والراجفة هي النفخة الأولى، والرادفة هي النفخة الثانية، فحقيق على القلوب أن تكون يومئذٍ واجفة والأبصار أن تكون خاشعة. قال رسول الله ﷺ:

«يحشر الناس يوم القيامة على أرض عفراء كقرص نقي ليس فيها معلم لأحد»[1].

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل هي تشبهها بالاسم فقط، قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[2].

---

(١) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٢٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

وهي أرض بيضاء مثل الفضة، لم يسفك عليها دمّ، ولم يعمل عليها خطيئة، والسماوات تذهب بشمسها وقمرها ونجومها. فانظر يا مسكين في هول يوم القيامة وشدته فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء، وطمس القمر والشمس وأظلمت الأرض لخمود سراجها فبيّنا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم وانشقت مع غلظها وشدتها خمسمائة عام. والملائكة قيام على حافاتها وأطرافها. فيا هول صوت انشقاقها على سمعك، ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان (أي كالأديم الأحمر)، وصارت السماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن (الصوف المصبوغ)، واشتبك الناس كالفراش المبثوث، وهم عراة مشاة، قال رسول الله ﷺ:

«يبعث الناس حفاة عراة غُرلاً[١] قد ألجمهم العرق وبلغ شموم الآذان، فقالت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ: يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض؟ قال: قد شغل الناس عن ذلك، لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه»[٢].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام قال:

«حدثني أبي أنه سمع أباه علي بن أبي طالب عليه السلام يحدّث الناس فقال: إذا كان يوم القيامة بعث الله

---

(١) الغرل: جمع الأغرل وهو الأغلف.

(٢) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٣٣.

تعالى الناس من حفرهم عزلاً بُهماً جرداً مرداً في صعيد واحد يسوقهم النور وتجمعهم الظلمة[(١)] حتى يقفوا على عقبة المحشر فيركب بعضهم بعضاً ويزدحمون دونها فيمنعون من المضي فتشتد أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق لهم أمورهم ويشتد ضجيجهم وترتفع أصواتهم، قال: وهو أول هول من أهوال يوم القيامة. قال: ثم يشرف الجبار تعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة، فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم يا معشر الخلائق انصتوا واستمعوا منادي الجبار، قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم، قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك وتخشع أبصارهم وتضطرب فرائصهم وتفزع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداع[(٢)] قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾[(٣)]، قال: فيشرف الجبار تعالى ذكره الحكم العدل عليهم فيقول: أنا الله لا إله إلا أنا الحكم العدل الذي لا يجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي وقسطي لا يظلم اليوم عندي أحد اليوم آخذ

(١) عزلاً: لا سلاح لهم. بهماً: ليس معهم شيء. جرداً: لا ثياب لهم. مرداً: ليس لهم لحية وهو كناية عن تجرّدهم عما يغطيهم ويخفي حقائقهم. يسوقهم النور: أي نور الإيمان والشرع. تجمعهم الظلمة: أي ما يمنعهم في تمام النور والإيقان.

(٢) مهطعين: مسرعين، أي يمدون أعناقهم لسماع صوته.

(٣) سورة القمر، الآية: ٨.

للضعيف من القويّ بحقّه ولصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات والسيئات وأثيب على الهبات[1] ولا يجوز هذه العقبة اليوم عندي ظلم ولأحد عنده مظلمة إلا مظلمة يهبها صاحبها وأثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب، وتلازموا أيها الخلائق واطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدنيا وأنا شاهد لكم عليهم وكفى بي شهيداً.

قال: فيتعارفون ويتلازمون فلا يبقى أحد له عند أحد مظلمة أو حق إلا لزمه بها، فيمكثون ما شاء الله فيشتد حالهم ويكثر عرقهم، ويشتد غمّهم وترتفع أصواتهم بضجيج شديد فيتمنون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها، قال: ويطلع الله على جهدهم، فينادي مناد من عند الله تعالى يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم: يا معشر الخلائق انصتوا لداعي الله واسمعوا إن الله تعالى يقول: أنا الوهّاب إن أحببتم أن تواهبوا فتواهبوا وإن لم تواهبوا أخذت لكم بمظالمكم، قال: فيفرحون بذلك لشدة جهدهم وضيق مسلكهم وتزاحمهم، قال: فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلّصوا مما هم فيه ويبقى بعضهم فيقول: يا رب مظالمنا أعظم من أن نهبها، قال: فينادي مناد من تلقاء العرش أين

(١) الهبات: أي هبات المظالم وإبراء الذمم.

رضوان خازن الجنان جنان الفردوس قال: فيأمره الله أن يطلع من الفردوس قصراً من فضة بما فيه من الأبنية والخدم، قال: فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم[1]. قال: فينادي مناد من عند الله تعالى يا معشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر، قال: فيرفعون رؤوسهم وكلهم يتمناه، قال: فينادي مناد من عند الله تعالى؛ يا معشر الخلائق هذا لكل من عفا عن مؤمن، قال: فيعفون كلهم إلا القليل، قال: فيقول الله تعالى: لا يجوز إلى جنتي اليوم ظالم ولا يجوز إلى ناري اليوم ظالم ولأحد من المسلمين عنده مظلمة حتى يأخذها منه عند الحساب، أيها الخلائق استعدوا للحساب، قال: ثم يخلّي سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يكرد[2] بعضهم بعضاً حتى ينتهوا إلى العرصة والجبار تعالى على العرش قد نشرت الدواوين ونصبت الموازين واحضر النبيون والشهداء وهم الأئمة، يشهد كل إمام على أهل عالمه بأنه قد قام فيهم بأمر الله تعالى ودعاهم إلى سبيل الله. قال (الراوي): فقال له رجل من قريش يا بن رسول الله، إذا كان للرجل المؤمن عند الرجل الكافر

---

(١) حفافة القصر: جوانبه.

(٢) الكرد: الطرد والدفع.

مظلمة أي شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار؟ قال: فقال له علي بن الحسين عليه السلام: يطرح عن المسلم من سيئاته بقدر ما لَهُ على الكافر، فيعذّب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة، قال: فقال له القرشي: فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم كيف تؤخذ مظلمته من المسلم؟ قال: يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حقّ المظلوم فتزاد على حسنات المظلوم، قال: فقال له القرشي: فإن لم يكن للظالم حسنات؟ قال: إن لم يكن للظالم حسنات فإن كان للمظلوم سيئات يؤخذ من سيئات المظلوم فتزاد على سيئات الظالم»[1].

فأعظم بيوم تكشف فيه العورات، ويؤمن فيه مع ذلك من النظر والالتفات، كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم، فقال رجل: يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[2].

فمن الطبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به الإنسان، فلو لم

(١) الكافي: ج ٨ ص ١٠٤.

(٢) رواه البغوي في المصابيح: ج ٢ ص ٢٠٧.

يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر تصوّر المشي على غير رجل، والمشي بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك.

فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته بالقياس لما في الدنيا، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكاراً لها.

فاستحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عرياناً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيّراً مبهوتاً منتظراً لما سيجري عليك من القضاء إما بالسعادة أو بالشقاء، وأعظم بهذه الحالة فإنها عظيمة..

يوم القيامة

إن يوم القيامة يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم متفطّرة قلوبهم، لا يتكلمون ولا ينظر في أمورهم، وهي كما قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾[1].

وتلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال:

«كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النّبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم»[2].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: إن يوم القيامة:

«يوم يقوم الناس لربّ العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[3].

وقال ﷺ:

«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في

(١) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٢) أخرجه الحاكم: ج ٤ ص ٥٧٢.

(٣) صحيح مسلم: ج ٨ ص ١٥٨.

الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ آذانهم»(١).

وقال ﷺ:

«تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبته، ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه، ومنهم من يغطيه عرقه، وضرب بيده على رأسه هكذا»(٢).

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة، ثم تلا عليه السلام قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾»(٣).

فعلى الإنسان أن يتأمل في طول يوم القيامة وشدّة الانتظار فيه حتى يخفّ عليه الصبر على المعاصي. فإنه من طال انتظاره للموت في الدنيا لشدّة مقاساته للصبر على الشهوات، فإنه في يوم القيامة يقصر انتظاره، كما قال الرسول الأكرم ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال:

«والذي نفسي بيده إنه ليخفّف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»(٤).

---

(١) صحيح مسلم: ج ٨ ص ١٥٨.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٤ ص ١٥٧.
(٣) رواه المفيد في أماليه.
(٤) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٣٧.

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين ما دام لك نفس من عمرك فالأمر لك والاستعداد بيدك، فاعمل في أيام قصار لأيام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره.

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه. يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب من هوله قد انتثرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كوّرت، والجبال قد سيّرت، والعشار قد عطّلت[1]، والوحوش قد حشرت، والبحار قد سجّرت، والنفوس قد زوّجت، والجحيم قد سعّرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدّت. ويوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها، يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم. ويوم تحمل الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة، فيومئذٍ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية والملك على أرجائها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية. يوم تسير فيه الجبال وترى الأرض هامدة. يوم ترجّ فيه الأرض رجّاً، وتبسّ الجبال بسّاً فكانت هباء منبثّاً، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش. يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيه

---

(١) العشار: النوق اللاتي أتى على حملهن عشرة أشهر. عطلت: أي لا يوجد من يحلبها.

عوجاً ولا أمتاً. يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب. يوم تنشقُّ فيه السماء فتكون وردة كالدّهان، فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان.

يوم يمنع العاصي فيه من الكلام ولا يسئل فيه أحد عن الاحترام، بل يؤخذ بالنواصي والأقدام. يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً. يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخّرت. يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح. يوم شيّب ذكره سيد المرسلين إذ قيل له: أراك قد شبت يا رسول، فقال:

«شيّبتني سورة هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت»(١).

فقد وصف الله تعالى دواهي يوم القيامة وأكثر من أساميها ليتنبه أولو الألباب، إذ تحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ، وفي كل نعت من نعوتها معنى ينبغي معرفته ونحن الآن نجمع لك بعض أساميها؛ فهي يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة ويوم المنافسة ويوم المسابقة، ويوم الزلزلة، ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الحاقة ويوم الآزفة ويوم الطلاق ويوم التناد ويوم الحساب و. . .

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور، واستترت عن الخلائق بمقارفة الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك. فالويل كل الويل لنا معاشر الغافلين،

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم.

يرسل الله تعالى إلينا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا على غفلتنا فيقول:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[1].

ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾[2].

ويقول:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾[3].

ويقول:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[4].

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأهوال في المساءلة وما سيوجه إليك من الأسئلة، فتسأل عن القليل والكثير. وبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدّة عظائمها إذ نزلت الملائكة من أرجاء السماوات بأجسام عظام وأشخاص ضخام، غلاظ شداد، أمروا بأن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبار، فقد قال النبيﷺ:

«إن لله عز وجل ملكاً ما بين شفري عينيه مسيرة خمسمائة عام».

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ١.

(٣) سورة المعارج، الآية: ٦ ـ ٧.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة وقد أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض، وأنت تراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم، مستشعرين بما بدا من غضب الجبار على عباده. وعند نزولهم لا يبقى نبي ولا صديق ولا صالح إلا ويخرّون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذون.

فهذه حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين، وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة: أفيكم ربنا؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم. فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم، فينادون بأصواتهم منزهين مليكهم عما توهّمه أهل الأرض فيقولون: سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد. وعند ذلك تقوم الملائكة صفّاً محدقين بالخلائق وعليهم شعار الذلّ والخشوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة ذلك اليوم وعند ذلك يصدّق الله تعالى قوله:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾[1].

وقوله عز وجل:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

فيبدأ بالأنبياء وذلك لقوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٦ و٧.
(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢ و٩٣.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

فيا لشدة ذلك اليوم الذي يسأل فيه الأنبياء فيقال لهم: ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق؟: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

فيدعى النبي نوح عليه السلام فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، ثم يقال لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما آتانا من نذير. ثم يؤتى بالنبي عيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[1].

ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً يا فلان بن فلانة هلمّ إلى موقف العرض، فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح، وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار، ولا يكشف سترهم على الملأ. وقبل البدء بالسؤال يظهر نور العرش، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب، وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار على مساءلة العباد. وظن كل واحد أنه المراد دون أحد سواه وأنه هو المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبار سبحانه عند ذلك: يا جبرئيل إئتني بالنار، فجاءها جبرئيل وقال لها: يا جهنم أجيبي خالقك ومليكك فيصادفها جبرئيل على تغيّظها وغضبها، فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت وشهقت، فسمع الخلائق تغيّظها وزفيرها وانتهضت متوثبة على الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

فاستحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاً ورعباً، فتساقطوا جثياً على الركب وولّوا مدبرين: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾[1]، وسقط بعضهم على وجوههم منكبين، وينادي الظالمون والعصاة بالويل والثبور، وينادي الصدّيقون نفسي نفسي، فبينا هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية، فيتضاعف خوفهم وتتخاذل قواهم حتى يظنوا أنهم مأخوذون، ثم زفرت الثالثة فتساقطت الخلائق لوجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفي وذهلت عقول السعداء والأشقياء، وبعد ذلك يقبل الله تعالى على الرسل ويقول: «ماذا أجبتم؟».

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[2].

«إذا كان يوم القيامة وحشر الناس للحساب فيمرّون بأهوال يوم القيامة فينتهون إلى العرصة، ويشرف الجبار عليهم حتى يجهدوا جهداً شديداً. قال: يقفون بفناء العرصة ويشرف الجبار عليهم وهو على عرشه، فأوّل من يدعى بنداء يسمع الخلائق أجمعين أن يهتف بإسم محمد بن عبد الله النبي القرشي العربي، قال: فيقدم حتى يقف على يمين العرش، قال: ثم يدعى بصاحبكم (الإمام علي عليه السلام) فيقدم حتى يقف على يسار رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم يدعى بأمّة محمد صلى الله عليه وآله فيقفون عن يسار علي عليه السلام، ثم يدعى بكل

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

نبي وأمّته معه من أوّل النبيين إلى آخرهم وأممهم معهم فيقفون عن يسار العرش، قال: ثم أوّل من يدعى للمساءلة القلم، قال: فيتقدّم بين يدي الله في صورة الآدميين فيقول الله: هل سطرت في اللوح ما ألهمتك وأمرتك به من الوحي؟ فيقول القلم: نعم يا رب قد علمت أني قد سطرت في اللوح ما أمرتني وألهمتني به من وحيك، فيقول الله فمن يشهد لك بذلك؟ فيقول: يا ربّ هل اطّلع على مكنون سرك خلق غيرك؟ قال: فيقول له: أفلجت حجّتك، قال: ثم يدعى باللوح فتقدّم في صورة الآدميين حتى يقف مع القلم فيقول له: هل سطر فيك القلم ما ألهمته وأمرته به من وحي؟ فيقول اللوح: نعم يا رب وبلّغته إسرافيل فيدعى بإسرافيل فيتقدم مع القلم واللوح في صورة الآدميين فيقول الله: هل بلّغك اللوح ما سطر فيه القلم من الوحي؟ فيقول: نعم يا رب وبلّغته جبرئيل، فيدعى بجبرئيل فيتقدم حتى يقف مع إسرافيل فيقول الله له: هل بلّغك إسرافيل ما بلّغ؟ فيقول: نعم يا رب وبلّغته جميع أنبيائك وأنفذت إليهم جميع ما انتهى إليّ من أمرك وأدّيت رسالتك إلى نبي نبي ورسول رسول وبلّغتهم كل وحيك وحكمتك وكتبك، إن آخر من بلّغته رسالتك ووحيك وحكمتك وعلمك وكتابك وكلامك؛ محمد ابن عبد الله العربي القرشي الحرميّ حبيبك. قال

أبو جعفر عليه السلام: فأوّل من يدعى من ولد آدم للمساءلة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله فيدنيه الله حتى لا يكون خلق أقرب إلى الله يومئذٍ منه فيقول الله: يا محمد هل بلّغك جبرئيل ما أوحيت إليه وأرسلته به إليك من كتابي وحكمتي وعلمي؟ وهل أوحى ذلك إليك؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم يا ربّ قد بلّغني جبرئيل جميع ما أوحيته إليه وأرسلته به من كتابك وحكمتك وعلمك وأوحاه إليّ، فيقول الله لمحمد صلى الله عليه وآله: هل بلّغت أمّتك ما بلّغك جبرئيل من كتابي وحكمتي وعلمي؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: نعم يا ربّ قد بلّغت أمتي جميع ما أوحيت إليّ من كتابك وحكمتك وعلمك وجاهدت في سبيلك فيقول الله لمحمد: فمن يشهد لك بذلك؟ فيقول محمد: يا رب أنت الشاهد لي بتبليغ الرسالة وملائكتك والأبرار في أمتي، وكفى بك شهيداً. فيدعى بالملائكة فيشهدون لمحمد بتبليغ الرسالة، ثم يدعى بأمة محمد فيسألون هل بلّغكم محمد رسالتي وكتابي وحكمتي وعلمي وعلّمكم ذلك؟ فيشهدون لمحمد بتبليغ الرسالة والحكمة والعلم. فيقول الله لمحمد: فهل استخلفت في أمتي من بعدك من يقوم فيهم بحكمتي وعلمي ويفسّر لهم كتابي ويبيّن لهم ما يختلفون فيه من بعدك حجّة لي وخليفة في الأرض؟ فيقول محمد: نعم يا رب قد

خلّفت فيهم عليّ بن أبي طالب أخي ووزيري ووصيّي وخير أمتي، ونصّبته لهم عَلَماً في حياتي ودعوتهم إلى طاعته وجعلته خليفتي في أمتي، إماما تقتدي به الأمة بعدي إلى يوم القيامة.

فيدعى بعلي بن أبي طالب عليه السلام فيقال له: هل أوصى إليك محمد واستخلفك في أمّته ونصّبك عَلَماً لأمّته في حياته، وهل قمت فيهم من بعده مقامه؟ فيقول له عليّ عليه السلام: نعم يا ربّ قد أوصى إليّ محمد وخلّفني في أمّته ونصّبني لهم علَماً في حياته، فلما قبضت محمداً إليك جحدتني أمّته ومكروا بي واستضعفوني وكادوا يقتلونني، وقدّموا قدّامي من أخّرت وأخّروا من قدّمت، ولم يسمعوا مني ولم يطيعوا أمري، فقاتلتهم في سبيلك حتى قتلوني. فيقال لعلي عليه السلام: هل خلّفت من بعدك في أمة محمد حجّة وخليفة في الأرض يدعو عبادي إلى ديني وإلى سبيلي؟ فيقول علي عليه السلام: نعم يا رب قد خلّفت فيهم الحسن ابني وابن بنت نبيّك، فيدعى بالحسن بن عليّ فيسأل عما سئل عنه علي بن أبي طالب، قال: ثم يدعى بإمام إمام، وبأهل عالمه فيحتجون بحجّتهم فقبل الله عذرهم ويجيز حجّتهم. قال: ثم يقول الله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال: ثم انقطع حديث أبي عليه وعلى آبائه السلام».

فتصور نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهاً فيقول لك: ألم أنعم عليك بالشباب ففيما أبليته؟ ألم أمهل لك في العمر فبماذا أفنيته؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت به؟...

فكيف ترى عندها حياءك وخجلتك وهو يعدّد عليك أنعامه ومعاصيك، وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك. فقد روي أن رسول الله ﷺ ضحك ثم قال:

«أتدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجزني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً منّي، فيقول: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي قال: فتنطق بأعماله ثم يخلّى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعداً لَكُنَّ وسحقاً، فعنكنّ كنت أناضل»[(١)].

فنعوذ بالله من الافتضاح على الملأ بشهادة الأعضاء، إلا أن الله وعد المؤمن أن يستر عليه ولا يطّلع عليه غيره، وقد قال رسول الله ﷺ:

«من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ٢١.

إذاً فالستر إنما يرجى لعبد ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئ الناس ولم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون، فمثل هذا العبد جدير بأن يجازى بمثله في يوم القيامة. وهب أنه قد ستره عن غيرك، ولكن يكفيك تلك الروعة التي تنتابك بسبب ذنوبك، حيث يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبّك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغيّر، والعالم حولك من شدة الهول مظلم، فتصوّر وأنت بهذه الصفة تتخطّى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما يقاد الفرس المجنوب (الذي لا يقاد).

وتصور نفسك في أيدي الموكّلين بك وأنت على هذه الصفة إذ انتهوا بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم، ثم يناديك الله سبحانه بعظيم كلامه: يا بن آدم إدن مني، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل، وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر، وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فذكرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فكشف لك عن مساويها. فليت شعري بأي قدم تقف بين يدي الله وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول؟ ثم تفكر في عظيم حيائك إذا ذكّرك بذنوبك فيقول لك: يا عبدي أما استحييت مني فبارزتني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل؟ أكنت أهون عليك من سائر عبادي؟ استخففت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيري! ألم أنعم عليك؟ أظننت أني لا أراك وأنك لا تلقاني؟

قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس

بينه وبينه حجاب ولا ترجمان»[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«ليقفنّ أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له: ألم أنعم عليك؟ ألم أوتك مالاً؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أرسل عليك رسولاً؟ فيقول: بلى، ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتق أحدكم النار ولو بشقّ تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة»[2].

(١) أخرجه مسلم: ج ٣ ص ٨٦.

(٢) أخرجه مسلم: ج ٣ ص ٨٦.

الميزان

إن الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

- فرقة ليس لهم حسنة، فيخرج من النار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير للحب، وينطوي عليهم ويلقيهم في النار فتبتلعهم وينادى عليهم بشقاوة لا سعادة بعدها.
- وقسم آخر لا سيئة لهم فينادي منادٍ ليقم الحامدون لله على كل حال، فيقومون ويسرحون إلى الجنة. ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، وينادى عليهم بسعادة لا شقاوة بعدها.
- وقسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله أن الغالب هو حسناتهم أو سيئاتهم. ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم حقيقة ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب. فتتطاير الكتب المنطوية على الحسنات والسيئات، وينصب الميزان، وتشخص الأبصار إلى الكتب لترى أنها هل تقع في اليمين أو في الشمال، فيميل الميزان إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات. وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق. قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ
﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾[1].

واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان والحساب إلا من حاسب نفسه في الدنيا، ووزن فيها أعماله وأقواله وخطواته ولحظاته بميزان الشرع كما ورد:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».

وأما محاسبته لنفسه فتحصل من خلال التوبة عن كل معصية توبة نصوحة قبل الموت. وتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله. فيرد المظالم حبّة بعد حبّة، ويستحلّ كل من تعرّض له بلسانه ويده وحتى سوء ظنه به، فيموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة. فمثل هذا الإنسان يدخل الجنة بغير حساب. وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته، هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني، وهذا يقول إغتبتني وهكذا...

وبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم، فأحكموا في تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحيّر من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعلّه يخلّصك من أيديهم، فبينما أنت كذلك إذ قرع سمعك نداء الجبار:

---

(١) سورة القارعة، الآيات: ٦ ـ ١١.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾(1).

عند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى به حيث قال:

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴿٤٣﴾﴾(2).

فما أشد فرحك اليوم بتناولك لأعراض الناس وأموالهم وما أشد حسرتك إذا وقف بك على بساط العدل وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن تردّ حقاً أو تبيّن عذراً، عندها تؤخذ حسناتك التي أتعبت فيها عمرك وتعطى إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«هل تدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته وإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»(3).

---

(1) سورة غافر، الآية: ١٧.
(2) سورة ابراهيم، الآيتان: ٤٢ و٤٣.
(3) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٨.

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم حيث لا تسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكائد الشيطان، وإن سلمت حسنة واحدة ابتدرك خصماؤك وأخذوها. ولو أنك حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا وقد جرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات، من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات!

فكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتصّ فيه الجمّاء من القرناء[1]. فقد روي عن أبي ذر (ره) أنه قال:

«إن النبيﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟ قلت: لا، قال: ولكن ربك يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة»[2].

فكيف بك يا مسكين وأنت ترى صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك، فتقول: أين حسناتي؟ فيقال لك: قد نقلت إلى صحيفة خصمائك، ثم ترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبك، واشتد بسبب الكف عنها عناؤك، فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط!؟ فيقال: هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المبايعة والمجاورة والمناظرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

قال رسول اللهﷺ:

«إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض

---

(١) الجمّاء: الكبش الذي لا قرن له. القرناء: الكبش الذي له قرن.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ج ٥ ص ١٦٢.

العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنها ستنجينّه، فما يزال عبد يجيء فيقول: يا رب إن فلاناً ظلمني بمظلمة فيقال: امح من حسناته، فما يزال كذلك حتى ما يبقى له من حسناته شيء، وإنّ مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرّق القوم فاحتطبوا فلم يلبثوا أن وقدوا نارهم وصنعوا ما أرادوا وكذلك الذنوب»[1].

فمن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم، فليستكثر من حسناته ليوم القصاص، وليستر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطّلع عليه إلا الله، إذ عساه يقرّبه ذلك إلى الله فينال به لطفه الذي ادّخره لأحبائه المؤمنين، لدفع مظالم العباد عنهم فتفكر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك من المظالم أو تلطّف بك حتى عفي عنك وأيقنت بالسعادة الأبدية فكيف يكون سرورك وقد خُلع عليك خلعة الرضا ووعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم ليس له فناء؟

فتصوّر نفسك وأنت تتحرك بين الخلائق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار، ونضرة النعيم تعرف في وجهك وبرد الرضا يتلألأ من جبينك، والخلق ينظرون إليك ويغبطونك على حالك والملائكة يمشون

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ١٨٩.

بين يديك ومن خلفك ينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان قد رضي الله عنه وأرضاه، وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً!

أفليس هذا المنصب أعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخلق ومداهنتك وتصنّعك وتزيّنك لهم؟! فإن كنت تعلم أنه خير من الدنيا وما فيها، فاسعَ إلى إدراك هذه المرتبة بالإخلاص الصافي والنيّة الصادقة. فإنك لن تدرك هذه المرتبة إلا بهما.

الصراط

قال الله تعالى:

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[١].

والصراط جسر ممدود على متن جهنم، أحد من السيف وأدق من الشعر. فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في عالم الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار والمعاصي، تعثر عند أول قدم يضعها على الصراط.

قال رسول الله ﷺ:

«ينصب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أوّل من يجيز بأمّته من الرسل، ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ اللهم سلّم سلّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فإنها مثل

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ٢٣ و٢٤.

شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، يخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل[1] ثم ينجو»[2].

وقال النبيﷺ:

«يمرّ الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف يخطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبتيه ملائكة يقولون: اللهم سلّم سلّم.

فمن الناس من يمرّ عليه كالبرق، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كالفرس المجري، ومنهم من يسعى سعياً، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم من يزحف زحفاً، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون، وأما أناس يؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحماً، ثم يؤذن في الشفاعة..»[3].

وعن الإمام الباقرعليه السلام قال:

«لما نزلت هذه الآية ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ سئل عن ذلك رسول اللهﷺ فقال: أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا جمع الأوّلين والآخرين أُتي بجهنم

---

(١) المخردل: المرمي، المصروع.

(٢) أخرجه البخاري: ج ٨ ص ١٤٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ج ٤ ص ٥٨٤.

تقاد بألف زمام آخذ بكل زمام ألف ملك من الغلاظ الشداد لها هدّة وتغيّظ وزفير، وانها لتزفر الزفرة فلولا أن الله أخرهم للحساب لأهلكت الجميع، ثم يخرج منها عنق يحيط بالخلائق البرّ منهم والفاجر، فما خلق الله عبداً من عباده ملكاً ولا نبياً إلا ينادي نفسي نفسي وأنت تقول: أمتي أمتي، ثم يوضع عليها صراط أدق من حدّ السيف عليه ثلاث قناطر، أما واحدة فعليها الأمانة والرَّحم وأما الأخرى فعليها الصلاة وأما الثالثة فعليها عدل رب العالمين لا إله غيره، يتكلفون الممرّ عليه فيجسم الرّحم والأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلاة وإن نجوا منها كان المنتهى إلى رب العالمين عز وجل وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾، والناس على الصراط فمتعلّق وقدم تستمسك وقدم تزلّ، والملائكة حولهم ينادون: يا حليم اغفر واصفح وعد بفضلك وسلّم سلّم، والناس يتهافتون فيها كالفراش فإذا نجا ناج برحمة الله عز وجل نظر إليها فقال: الحمد لله الذي نجاني منها بعد إياس بمنّه وفضله، إنّ ربّنا لغفور شكور»(١).

وعن الإمام الصادقعليه السلام قال:

«الناس يمرّون على الصراط طبقات والصراط أدق من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ مثل

---

(١) الصدوق في أماليه: ص ٧٢٤.

البرق ومنهم من يمرّ مثل عدو الفرس ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم من يمرّ مشياً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً، قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً»[1].

وعن النبيﷺ أنه قال لعليعليه السلام:

«يا عليّ إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط فلا يجوز على الصراط إلا من كانت معه براءة بولايتك»[2].

فهذه أهوال الصراط، فطوّل فيها فكرك، إن من طال فكره فيها في الدنيا سلم منها يوم القيامة، فإن الله تعالى لا يجمع على عبد خوفين. من خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة.

وليس المقصود من الخوف أن تدمع عيناك ويرق قلبك حال السماع، ثم تنساه بعد فترة وتعود إلى لهوك ولعبك. بل من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه. فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله ويحثّك على طاعته.

وإن أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقاً، ومعنى صدقه أن لا يكون لك مقصود سوى الله ولا معبود سواه. أما من اتخذ إلهه هواه فهو بعيد عن التوحيد الصادق وهو في خطر من أمره. فإن عجزت عن ذلك فكن محباً لرسول اللهﷺ وأهل بيتهعليهم السلام، فعساك تنال شفاعتهم صلوات الله عليهم أجمعين فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة.

---

(١) معاني الأخبار: ص ٣٥ رقم ٦.

(٢) المصدر السابق.

الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصدّيقين، بل شفاعة العلماء والصالحين.

فكن حريصاً على أن تكسب لنفسك عند الله رتبة الشفاعة، وذلك بأن لا تحقّر آدمياً أصلاً، فإن الله تعالى خبّأ ولايته في عباده، فلعلّ الذي تزدريه هو ولي الله!

ولا تستصغر المعصية مهما كانت، فإن الله تعالى خبّأ غضبه في معاصيه ولعلّ غضب الله ومقته يكمن فيه. ولا تستحقر طاعة أبداً فإن الله تعالى خبّأ رضاه في طاعته. وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة.

قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

وقال عز اسمه: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

وروي أن رسول الله ﷺ:

«تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقول عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ثم رفع يديه وقال: أمتي أمتي، ثم بكى. فقال الله عز وجل: يا جبرئيل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك، فأتاه فسأله، فأخبره والله أعلم به، فقال: يا جبرئيل اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك بهم»[4].

وقال النبي ﷺ:

«أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وترابها

---

(١) سورة مريم، الآية: ٨٧.

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

(٤) أخرجه مسلم: ج ١ ص ١٣٢.

طهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأعطيت الشفاعة، وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

وقال ﷺ:

«إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر»[2].

وقال ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أوّل من تنشقّ الأرض عنه، وأنا أوّل مشفّع، بيدي لواء الحمد تحته آدم فمن دونه»[3].

وقال ﷺ:

«لكل نبي دعوة مستجابة، فأريد أن أختبي دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[4].

وقال ﷺ:

«ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويبقى منبري لا أجلس عليه، فإنما أنا بين يدي ربي منتصباً مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي فأقول: يا رب أمتي، فيقول الله تعالى: يا محمد وماذا تريد أن أصنع بأمتك فأقول: يا ربّ

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٣١٤.
(٣) مسند أحمد: ج ٣ ص ١٤٤.
(٤) أخرجه مسلم: ج ١ ص ١٣٣.

عجّل حسابهم، فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النار، وحتى أنّ مالكاً خازن النار يقول: يا محمد ما تركت للنار لغضب ربك في أمّتك من بقيّة»[1].

وقال ﷺ:

«إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة فقال:

«يلجم الناس يوم القيامة العرق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا فيأتون آدم فيقولون: إشفع لنا عند ربك، فيقول: إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح، فيردَّهم إلى من يليه ويردّهم كل نبي إلى من يليه حتى ينتهوا إلى عيسى فيقول: عليكم بمحمد رسول الله ﷺ فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنّة ويستقبل باب الرحمن ويخرّ ساجداً، فيمكث ما شاء الله فيقول: إرفع رأسك واشفع تشفع وسل تعط، ذلك قوله عز وجل:
﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط.
(٢) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٧٩.
(٣) رواه علي بن ابراهيم في تفسيره.

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي، ثم قال: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل»[1].

فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولآحاد أمّته من العلماء والصالحين شفاعة أيضاً. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يقال للرجل: قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل بيت، وللرجل والرجلين على قدر عمله»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«يؤتى بعبد يوم القيامة ليست له حسنة، فقال له: اذكر وتذكّر هل لك حسنة؟ قال: فيتذكر فيقول: يا رب مالي حسنة إلا أن عبدك فلاناً المؤمن مرّ بي فطلب مني ماء يتوضأ به فيصلي به فأعطيته، قال: فيدعى ذلك العبد المؤمن فيذكر ذلك فيقول: نعم يا ربّ مررت به فطلبت منه ماء فأعطاني، وتوضأت وصلّيت، قال: فيقول الله: ادخلوا عبدي الجنّة»[3].

---

(١) رواه الصدوق في العيون: ص ٧٨.

(٢) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٨١.

(٣) بحار الأنوار: كتاب العدل والمعاد.

الحوض

إن الحوض مكرمة عظيمة خصّ الله بها نبيناﷺ وقد اشتملت الأخبار على وصفه. ومن صفاته أن من شرب منه لم يظمأ أبداً. روي أنه لما نزلت سورة الكوثر قال رسول اللهﷺ:

«هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير، عليه حوض، ترد أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم»[1].

وفي رواية أخرى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قال رسول اللهﷺ:

«هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك يجري على جنادل اللؤلؤ والمرجان»[2].

---

(١) الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٠١.

(٢) أخرجه الدارمي.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إنّ حوضي ما بين عدن إلى عمّان البلقاء ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أوّل الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين»(١).

وعن طريق أهل البيت عليهم السلام:

«إنّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي منه أولياءه ويذود عنه أعداءه»(٢).

وسئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الرجل للرجل جزاك الله خيراً ما يعني به؟ فقال عليه السلام:

«إن خيراً نهر في الجنة مخرجه من الكوثر والكوثر مخرجه من ساق العرش عليه منازل الأوصياء وشيعتهم، على حافتي النهر جواري نابتات كلما قلعت واحدة نبتت أخرى سمّي بذلك النهر، وذلك قوله عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾. فإذا قال الرجل لصاحبه: «جزاك الله خيراً» فإنما يعني بذلك تلك المنازل التي قد أعدّها الله لصفوته وخيرته من خلقه»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ٩ ص ٢٧٠.

(٢) أمالي الصدوق: ص ١٦٨.

(٣) معاني الأخبار: الصدوق، ص ١٨٢.

وروي أن رسول الله ﷺ قال:

«إن لكل نبي حوضاً وإنهم ليتباهون أيّهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة»[1].

فهذا رجاء رسول الله ﷺ، فليرج كل عبد أن يكون من جملة الواردين، وليحذر من أن يكون متمنياً أو مغتراً وهو يظن أنه راج، فإن الراجي للحصاد هو الذي قد بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد.

أما من ترك الحراثة والزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو فضل الله تعالى في أن ينبت له الحب، فهو مغترّ ومتمنّ وليس من الراجين حقيقة.

وهذا في الحقيقة هو رجاء أكثر الخلق، وهو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإن الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا، قال الله تعالى:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2].

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ٩ ص ٢٧٠.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

جهنّم وأهوالها

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾[1].

فإذا كنت أيها الإنسان متيقّن الورود على جهنم وشاكاً من النجاة منها، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة بالتشمر لأعمال الآخرة. وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، وبينما هم في كربها وأهوالها واقفين ينتظرون حقيقة إنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلّت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل المضيّع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بالتهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد وينكّسونه في قعر

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١ و٧٢.

الجحيم ويقولون له: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾[1] فيسكنونهم في دار ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلّد فيها الأسير ويؤبد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها، يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منّا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، وتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسأوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه عائدون، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرّطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبّون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم وشمائلهم. طعامهم نار وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار. فهم بين مقطّعات النيران وسرابيل القطران، وضرب المقامع وثقل السلاسل. يتجلجلون في مضائقها ويتحطمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل والثبور. وكلما دعوا بالثبور صبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد تهشّم بها هامّاتهم، فيتفجّر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسقط من الوجنات لحومها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح وهي تتألم من لفح النيران،

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون. فكيف بك لو نظرت إليهم وقد اسودّت وجوههم وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزّقت جلودهم وغلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم!...

هذه جملة من بعض أحوالهم، وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكّر في أودية جهنم حيث قال رسول الله ﷺ:

«إن في جهنم سبعين ألف واد، في كل واد سبعون ألف شعب، وفي كل شعب سبعون ألف ثعبان، وسبعون ألف عقرب، لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كلّه».

وقال رسول الله ﷺ:

«تعوّذوا بالله من جبّ الحزن أو وادي الحزن، قيل: يا رسول الله: وما وادي الحزن أو جبّ الحزن؟ قال: واد في جهنم تتعوّذ منه جهنم كل يوم سبعين مرّة أعدّه الله تعالى للقرّاء المرائين»(١).

فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها، وهي بحسب أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يعصي العبد، بعضها فوق بعض، الأعلى منها يسمى جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية. فانظر الآن في عمق الهاوية فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا.

---

(١) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٤٦٨.

روي أن رسول الله ﷺ كان ذات يوم جالساً مع أصحابه فسمعوا وجبة فقال رسول الله ﷺ:

«أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال: هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين عاماً الآن انتهى إلى قعرها»[١].

ودركات جهنم متفاوتة، فكما أن انكباب الناس على الدنيا والشهوات متفاوت فكذلك تناول النار لهم أيضاً متفاوت، فإن الله لا يظلم مثقال ذرّة.

قال رسول الله ﷺ:

«إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه»[٢].

وقال رسول الله ﷺ في وصف نار جهنم:

«أمر الله تعالى أن أوقد على النار ألف عام فاحمرّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة»[٣].

وقال ﷺ:

«اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا ربّ أكل بعضي

---

(١) رواه مسلم: ج ٨ ص ١٥٠.
(٢) الحاكم في المستدرك: ج ٤ ص ٥٨١.
(٣) الترمذي: ج ١٠ ص ٥٨.

بعضاً، فأذِنَ لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدونه في الصيف من حرّها وأشد ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها»[1].

وقال ﷺ:

«لو أنّ دلواً من غسّاق جهنم ألقي في الدنيا لأنتن أهل الأرض»[2].

فانظر في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقوا فيه وهو الغسّاق. وهذا هو شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميّت وهو قوله تعالى:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[3].

وانظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال عز وجل:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾[4].

وقال عزّ اسمه:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ

---

(١) الترمذي: ج ١٠ ص ٦٠.
(٢) الترمذي: ج ١٠ ص ٥٣.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الواقعة، الآيات: ٥١ ـ ٥٥.

رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وقال تعالى:

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾[2].

وقال عز وجل:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾[3].

قال رسول الله ﷺ:

«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك»[4].

وقال ﷺ:

«إرغبوا فيما رغّبكم الله، واحذروا مما حذّركم الله، وخافوا ما خوّفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في الدنيا التي أنتم فيها لطيّبتها لكم، ولو كانت قطرة

---

(١) سورة الصافات، الآيات: ٦٤ ـ ٦٧.
(٢) سورة الغاشية، الآيتان: ٤ و٥.
(٣) سورة المزمل، الآيتان: ١٢ و١٣.
(٤) الترمذي: ج ١٠ ص ٥٤.

من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها لخبثتها عليكم»[1].

وقال النبي الأكرمﷺ:

«يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصّة فيذكرون أنهم كانوا يسيغون الغصص في الدنيا، فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون: ادعوا خزنة جهنّم فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنّا يوماً من العذاب، فيقولون: أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات، قالوا: بلى، قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال، قال: فيقولون: ادعوا مالكاً، فيدعون فيقولون: يا مالك ليقض علينا ربّك، قال فيجيبهم: أنكم ماكثون. قال: فيقول بعضهم لبعض: ادعوا ربكم فلا أحد خيرٌ من ربكم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ، رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، قال: فيجيبهم ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا

(١) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٤٥٣.

تُكَلِّمُونِ﴾، قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل»[1].

وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ قال:

«يقرّب إليه فيتكرَّهه، فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾[3]»[4].

فهذا طعام أهل جهنم وشرابهم، وانظر الآن إلى حيّات جهنم وعقاربها، وإلى شدّة سمومها وعظم أشخاصها وفظاعة منظرها وقد سلطت على أهلها، فهي لا تفتر عن النهش واللّدغ ساعة واحدة.

قال النبي الأكرم ﷺ:

«إنّ في النار لحيّات مثل أعناق البخت يلسعن اللّسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، وإن فيها لعقارب كالبغال المؤكفة يلسعن اللّسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، وهذه العقارب والحيات إنما تسلّط على من سلط عليه في الدنيا البخل

---

(١) الترمذي: ج ١٠ ص ٥٥.
(٢) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٤) الترمذي: ج ١٠ ص ٥١.

وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقي ذلك وقي هذه الحيات فلم تمثل له»[١].

وتفكر في أجسام أهل النار فإن الله يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عقابهم بسببه فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائهم دفعة واحدة على التوالي. فعن رسول الله ﷺ قال في الكافر:

«شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالِصةٌ قد غطّت وجهه»[٢].

وقال ﷺ:

«إن الكافر ليجرّ لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس»[٣].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«إن أهل النار يتعاوون كما يتعاوى الكلاب والذئاب مما يلقون من أليم العذاب. ما ظنّك بقوم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها، عطاش فيها، جياع، كليلة أبصارهم، صم بكمٌ عميٌ مسودّة وجوههم خاسئين فيها نادمين مغضوب عليهم فلا يرحمون ومن العذاب لا يخفف عنهم وفي النار يسجرون، ومن الحميم يشربون،

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه الترمذي.
(٣) أخرجه الترمذي: ج ١٠ ص ٤٩.

ومن الزقوم يأكلون، وبكلاليب النار يحطمون، وبالمقامع يضربون والملائكة الغلاظ الشداد لا يرحمون، فهم في النار يسحبون على وجوههم ومع الشياطين يقرنون وفي الأنكال والأغلال يصفدون، إن دعوا لم يستجب لهم، وإن سألوا حاجة لم تقض لهم هذه حال من دخل النار»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«بينما رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ جاء جبرئيل عليه السلام وهو كئيب حزين متغيّر اللون فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جبرئيل ما لي أراك باكياً حزيناً فقال: يا محمد فكيف لا أكون كذلك، وإنما وضعت منافيخ جهنّم اليوم، فقال رسول الله: وما منافيخ جهنّم يا جبرئيل فقال: إن الله تعالى أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتى احمرّت ثم أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت ثم أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى اسودّت وهي سوداء مظلمة، فلو أن حلقة من السلسلة التي لها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها، ولو أنّ قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا مات أهل الدنيا من نتنها، قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً

---

(١) الأمالي: ص ٣٢٢.

فقال: إنّ ربكما يقرئكما السلام ويقول: قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً فأعذبكما عليه»[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن ناركم هذه لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم ولقد أطفئت سبعين مرّة بالماء، ولولا ذلك لما استطاع آدمي أن يطفئها إذا التهبت وأنه ليؤتى بها يوم القيامة حتى توضع على النار، ما يبقى ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلا جثا بركبتيه فزعاً من صرخها»[2].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إنّ في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى الله شدة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم»[3].

وقال رسول الله ﷺ:

«يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك»[4].

فهذه أصناف عذاب جهنّم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسراتها لا نهاية له. ومن أعظم الأمور عليهم مع

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط.
(٢) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٧٦.
(٣) ثواب الأعمال: ٢١٥.
(٤) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٤٩.

ما يلقونه من شدّة العذاب هو حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة، باعوها بشهوات حقيرة في الدنيا ولأيام معدودة، رغم أنها لم تكن صافية لهم أيضاً، بل كانت مكدَّرة، منغّصة، عندها سيكون لسان حالهم: واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا؟ وكيف لم نكلّف أنفسنا بالصبر أياماً معدودة؟ ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنّا أيامه، ولكنا الآن في جوار الرحمن منعّمين بالرضا والرضوان!

فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذّاتها!

ولو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم، ولكنها تعرض عليهم كما قال رسول الله ﷺ:

«يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنّة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها، نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأوّلون والآخرون بمثلها فيقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، فيقول تعالى: ذاك أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين، تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلّوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما

حرّمتكم من الثواب المقيم»[1].

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون، وانّ هذا أمر قد قضي وفرغ منه، قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾[2].

فالعجب منك كيف تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك؟ وإذا أردت أن تعرف ما الذي سبق به القضاء في حقك فانظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلاً ميسّر لما خلق له، فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار. وإن كنت لا تقصد الخير إلا وتجد دائماً ما يعيقه ويدفعه، ولا تقصد الشرّ إلا ويتيسّر لك أسبابه فاعلم أنك مقضي عليك. ودلالة هذا الأمر على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار، فقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾[3].

فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرّك في الدارين.

---

(١) روي في الأربعين لأبي هدبة عن أنس.
(٢) سورة مريم، الآية: ٣٩.
(٣) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣ و١٤.

الجنة ونعيمها

إذا أراد الإنسان أن يتعرف على صفة الجنة فعليه بقراءة القرآن، فليس وراء بيان الله تعالى بيان وقد قال عز اسمه في سورة الرحمن[1]:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا
عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن
كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾
مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ
﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ
﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ
﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ

(١) سورة الرحمن، الآيات: ٤٦ ـ ٧٨.

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ
﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ
قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ
عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى:

«﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ قال: جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»(١).

وأبواب الجنة كثيرة بحسب الطاعات كما أن أبواب النار كثيرة أيضاً بحسب المعاصي. قال رسول الله ﷺ:

«من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وهو الرّيان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة،

---

(١) صحيح البخاري: ج ٦ ص ١٨١.

ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد»[1].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة تخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به فشربوا منها، فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغيّر أشعارهم بعدها أبداً، ولا تشعث رؤوسهم كأنما دهنوا بالدّهان، ثم انتهوا إلى الجنّة فقيل لهم: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين، ثم يلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له: أبشر بما أعدّ الله لك من الكرامة كذا.. قال: فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا، فتقول: وأنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته وهو بأثري فيستخفّها الفرح حتى تقوم إلى اسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من

(١) أخرجه مسلم: ج ٣ ص ٩١.

كل لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق، ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره، ثم يطأطئ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابيٌّ مبثوثة، ثم اتّكأ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾. ثم ينادي مناد يا أهل الجنة تحيون ولا تموتون أبداً، وتقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحون فلا تمرضون أبداً»[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«آتي يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[2].

وفي الجنّة غرف، مختلف درجات العلوّ فيها. فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلاً. وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً، فكذلك ما يجزون به فيه تفاوت ظاهر أيضاً.

فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى، فقد أمرك بالمسابقة والمسارعة والمنافسة فيها حيث قال:

---

(١) الدر المنثور: ج ٥ ص ٣٤٣.

(٢) صحيح مسلم: ج ١ ص ١٣٠.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(١).

وقال عز وجل:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾(٢).

وقال عز اسمه:

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾(٣).

قال رسول الله ﷺ:

«إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»(٤).

وقال ﷺ:

«إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء»(٥).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة المطففين، الآية: ٢٦.
(٤) صحيح مسلم: ج ٨ ص ١٤٥.
(٥) أخرجه ابن ماجة: رقم ٩٦.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ:

«ألا أحدّثكم بغرف الجنة؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمّنا، قال: إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كلّه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من النعيم واللذّات والسرور، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال: قلت: يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: لمن أفشى السلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلّى بالليل والناس نيام، قال: قلنا: يا رسول الله ومن لا يطيق ذلك، قال: أمتي تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك، من لقي أخاه فسلّم عليه أو ردّ عليه فقد أفشى السلام، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام، ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام، ومن صلّى العشاء الآخرة وصلّى الغداة في جماعة فقد صلّى بالليل والناس نيام ـ يعني اليهود والنصارى والمجوس ـ»[1].

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[2] قال ﷺ:

---

(١) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٥١١.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٢.

«قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كل دار سبعون بيتاً من زمرّد أخضر، في كل بيت سرير، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون، على كل فرش زوجة من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كل مائدة سبعون لوناً مع (من) الطعام، في كل بيت سبعون وصيفةً، ويعطى المؤمن في كل غداة ـ يعني من القوّة ـ ما يأتي على ذلك أجمع»[1].

وعن رسول الله ﷺ أيضاً قال:

«إن حائط الجنّة لبِنَةٌ من ذهب ولبنة من فضّة ترابها زعفران وطينها مسك»[2].

وسئل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة فقال: «دَرْمكَةٌ بيضاء مسك خالصة»[3].

وقال النبي الأكرم ﷺ:

«من سرّه أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخر فليتركها في الدنيا، ومن سرّه أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا»[4].

---

(١) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٥١٧.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا وفي الترغيب والترهيب.
(٣) درمكة: الدقيق الحواري.
(٤) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٥١٧.

وعنه ﷺ قال:

«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها»[1].

أقبل أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال:

«يا رسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنّة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: ما هي؟ قال: هي السدر، فإن لها شوكاً، فقال له النبي: قال الله تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾، ويخضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة، ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر»[2].

وعن النبي الأكرم ﷺ قال:

«إن للجنة لَبِنَة من ذهب ولبنة من فضة ولبنة من ياقوت وملاطها المسك الأذفر، وشرفها الياقوت الأحمر والأخضر والأصفر، وأبوابها مختلفة، باب الرحمة من ياقوتة حمراء، وأما الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوتة حمراء لا حلق له، وأما باب الشكر فإنه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان مسيرة ما بينهما خمسمائة عام، له ضجيج وحنين

(١) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٤٤.
(٢) الدر المنثور: ج ٦ ص ١٥٦.

يقول: اللهم جئني بأهلي ينطقه ذو الجلال والإكرام، وأما باب البلاء من ياقوتة صفراء مصراع واحد ما أقلّ من يدخل منه، فأما الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصالحون، وهم أهل الزهد والورع الراغبون إلى الله عز وجل المستأنسون به، فإذا دخلوا الجنة يسيرون على نهرين في ماء صاف في سفن الياقوت مجاذيفها اللؤلؤ فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديد الخضرة يسيرون على حافتي ذلك النهر، واسم ذلك النهر جنة عدن، هي وسط الجنان وسورها ياقوت أحمر حصباؤها اللؤلؤ»[1].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون وباب يدخل منه الشهداء والصالحون وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبّي وأنصاري، ومن تولاّني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك وشفّعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول، في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه،

(١) رواه الصدوق في الفقيه.

وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضنا أهل البيت»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«أحسنوا الظن بالله واعلموا أن للجنّة ثمانية أبواب عرض كل باب منها مسيرة أربعمائة سنة»[٢].

---

(١) الخصال: ج ٢ ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق.

أهل الجنة

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة في سورة الواقعة(١):

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ
(١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ
(١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ
مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ
مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ
عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا
سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى
سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠)
وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا
مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥)
فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾.

(١) سورة الواقعة، الآيات: ١٠ ـ ٣٧.

وقال الله تعالى أيضاً في وصفهم:

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1].

والآيات في تفصيل ذلك كثيرة، وأما تفصيله في الأخبار فقد روي عن النبيﷺ أنه قال:

«من يدخل الجنّة ينعّم لا يبأس، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه. في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[2].

وسأل رجل رسول اللهﷺ: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنّة أخلق تخلق أم نسج تنسج، فسكت رسول اللهﷺ، وضحك بعض القوم، فقال رسول اللهﷺ:

«ممّ تضحكون من جاهل سأل عالماً، ثم قالﷺ: بل ينشقُّ عنها ثمر الجنة مرّتين»[3].

وعن رسول اللهﷺ قال:

«إنّ أوّل زمرة تلج الجنّة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوّطون، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضّة، ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان مخُّ

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٣.
(٢) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٤٤.
(٣) أخرجه أحمد: ج٢ ص ٢٠٣.

ساقيهما يرى من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبّحون الله بكرة وعشياً»[1].

وقال ﷺ:

«﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ قال: إن عليهم التيجان، إنّ أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب»[2].

وقال ﷺ:

«الخيمة درّة مجوّفة طولها في السماء ستّون ميلاً، للمؤمن في كل زاوية منها أهل لا يراه الآخرون»[3].

وقال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾:

«ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض»[4].

وذكر الله تعالى طعام أهل الجنة في القرآن فقال إنه من الفواكه والطيور السمان والمنّ والسلوى، والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى، قال الله تعالى:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي

---

(١) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ١٤٧.
(٢) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٤١٩.
(٣) رواه مسلم: ج ٨ ص ١٤٨.
(٤) أخرجه الترمذي: ج ١٠ ص ١١.

رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[1].

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة أيضاً. روي أن رجلاً يهودياً قال لرسول الله ﷺ:

«يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لي بهذا خصمته. فقال ﷺ: بلى والذي نفسي بيده، إنّ أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل في المطعم والمشرب والجماع، فقال اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له حاجة، فقال رسول الله ﷺ: حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك، فإذا البطنُ قد ضَمَر»[2].

وقال رسول الله ﷺ:

«إنك لتنظر إلى الطير في الجنّة فتشتهيه فيخرُّ بين يديك مشوياً»[3].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

««تسنيم» أشرف شراب أهل الجنة يشربه محمد وآل محمد صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة»[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

(٢) مسند أحمد: ج ٤ ص ٣٦٧.

(٣) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٥٢٧.

(٤) رواه القمي في تفسير قوله تعالى ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧﴾.

وروي أيضاً في شأن أهل الجنّة، أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال:

«هل في الجنة خيل فإنها تعجبني؟ قال: إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فيطير بك في الجنة حيث شئت، وقال له رجل آخر: إن الإبل يعجبني فهل في الجنة من إبل؟ فقال: يا عبد الله: إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عيناك»[1].

وروي عن رسول الله ﷺ أيضاً أنه قال:

«إنّ الرجل من أهل الجنّة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة»[2].

وقال ﷺ:

«إذا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان فيتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول: يا أخي أتذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ١٠ ص ١٣.
(٢) الترمذي: ج ١٠ ص ٣٥.
(٣) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٤٢١.

وقال ﷺ:

«أهل الجنّة جردٌ مردٌ بيض جعاد مكحّلون أبناء ثلاث وثلاثين، على خلق آدم، طولهم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع»[1].

وقال ﷺ:

«إن أدنى أهل الجنّة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة، وينصب له قبّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء، وان عليهم التيجان، وإن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[2].

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال:

«إن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ فقال: يا عليّ إن الوفد لا يكونون إلا ركباناً، أولئك رجال اتقوا فأحبهم الله تعالى واختصهم ورضي أعمالهم فسمّاهم المتقين ثم قال له: يا عليّ أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنهم ليخرجون من قبورهم وأنّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الغرّ عليها رحال الذهب مكلّلة بالدر والياقوت، وجلالها الاستبرق

(١) الترمذي: ج ١٠ ص ١٤.

(٢) الترمذي: ج ١٠ ص ٣٥.

والسندس، وخطمها جدل الأرجوان، تطير بهم إلى المحشر مع كل رجل منهم ألف ملك من قدّامه وعن يمينه وعن شماله يزفّونه زفّاً حتى ينتهوا بهم إلى باب الجنة الأعظم، وعلى باب الجنة شجرة إن الورق منها يستظلّ تحتها ألف رجل من الناس، وعن يمين الشجرة عين مطهّرة مزكية فيسقون منها شربة فيطهّر الله بها قلوبهم من الحسد ويسقط عن أبشارهم الشعر، وذلك قوله الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ من تلك العين المطهّرة. قال: ثم ينصرفون إلى عين أخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها وهي عين الحياة فلا يموتون أبداً».

قال: ثم يوقف بهم قدّام العرش وقد سلموا من الآفات والأسقام والحرّ والبرد أبداً، فيقول الجبار جلّ ذكره للملائكة الذين معهم: احشروا أوليائي إلى الجنة ولا توقفوهم مع الخلائق، فقد سبق رضائي عنهم، ووجبت رحمتي لهم، وكيف أريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيئات. قال: فتسوقهم الملائكة إلى الجنة فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنة الأعظم ضرب الملائكة الحلقة ضربة فتصرّ صريراً يبلغ صوت صريرها كل حوراء أعدها الله تعالى لأوليائه في الجنان، فيتباشرون بهم إذا سمعوا صرير الحلقة فيقول بعضهم لبعض: قد جاءنا أولياء الله فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنة،

ويشرف عليهم أزواجهم من الحور العين والآدميين فيقلن: مرحباً بكم فما كان أشد شوقنا إليكم، ويقول لهنّ أولياء الله مثل ذلك.

فقال علي عليه السلام: يا رسول الله أخبرنا عن قول الله تعالى:

﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ بماذا بنيت يا رسول الله؟ فقال: يا علي تلك غرف بناها الله تعالى لأوليائه بالدرّ والياقوت والزبرجد، سقوفها الذهب محبوكة بالفضّة، لكل غرفة منها ألف باب من الذهب على كل باب منها ملك موكّل به فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير والديباج بألوان مختلفة، وحشوها المسك والكافور والعنبر، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾، إذا أدخل المؤمن إلى منازله في الجنّة ووضع على رأسه تاج الملك والكرامة، ألبس حلل الذهب والفضّة والياقوت والدرّ المنظوم في الإكليل تحت التاج. قال: وألبس سبعين حلّة حرير بألوان مختلفة وضروب مختلفة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت الأحمر فذلك قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فإذا جلس المؤمن على سريره اهتزّ سريره فرحاً، فإذا استقرّ لوليّ الله منازله في الجنان استأذن عليه الملك

الموكل بجنانه ليهنّئه بكرامة الله تعالى إياه فيقول له خدام المؤمن من الوصفاء والوصائف: مكانك فإن وليّ الله قد اتكأ على أريكته وزوجته الحوراء تُهيّأُ له فاصبر لوليّ الله. قال: فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها تمشي مقبلة وحولها وصائفها، وعليها سبعون حلّة منسوجة بالياقوت واللؤلؤ والزبرجد وهي من مسك وعنبر وعلى رأسها تاج الكرامة وعليها نعلان من ذهب مكلّلتان بالياقوت واللؤلؤ، شراكها ياقوت أحمر، فإذا دنت من ولي الله فهمّ أن يقوم إليها شوقاً فتقول له: يا ولي الله ليس هذا يوم تعب ولا نصب فلا تقم أنا لك وأنت لي، قال: فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعوام الدنيا لا يملها ولا تملّه. قال: فإذا فتر بعض الفتور من غير ملالة نظر إلى عنقها فإذا عليها قلائد من قصب من ياقوت أحمر وسطها لوح صفحته درّة مكتوب فيها أنت يا وليّ الله حبيبي وأنا الحوراء حبيبتك إليك تناهت نفسي وإليّ تناهت نفسك، ثم يبعث الله إليه ألف ملك يهنئونه بالجنّة ويزوّجونه بالحوراء. قال: فينتهون إلى أوّل باب من جنانه فيقولون للملك الموكّل بأبواب جنانه: استأذن لنا على وليّ الله فإن الله بعثنا إليه نهنئه، فيقول لهم الملك: حتى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم، قال: فيدخل الملك إلى الحاجب وبينهم وبين الحاجب

ثلاث جنان حتى ينتهي إلى أوّل باب فيقول للحاجب: إن على باب العرصة ألف ملك أرسلهم رب العالمين ليهنئوا وليّ الله وقد سألوني أن آذن لهم عليه فيقول الحاجب: إنه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحد على وليّ الله وهو مع زوجته الحوراء، قال: وبين الحاجب وبين ولي الله جنتان، قال: فيدخل الحاجب إلى القيّم فيقول له: إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم رب العزّة يهنئون وليّ الله، فاستأذن لهم فيتقدم القيّم إلى الخدام فيقول لهم: إن رسل الجبار على باب العرصة وهم ألف ملك أرسلهم يهنئون ولي الله فأعلموه مكانهم، قال: فيعلمونه فيؤذن للملائكة، فيدخلون على وليّ الله وهو في الغرفة ولها ألف باب وعلى كل باب من أبوابها ملك موكّل به، فإذا أذن للملائكة بالدخول على وليّ الله فتح كل ملك بابه الموكّل به، فيدخل القيّم كل ملك من باب من أبواب الغرفة، فيبلّغونه رسالة الجبار جلّ وعزّ وذلك قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾، يعني بذلك وليّ الله وما هو فيه من الكرامة والنعيم والملك العظيم الكبير، إن الملائكة من رسل الله تعالى يستأذنون عليه فلا يدخلون عليه إلا بإذنه فذلك الملك العظيم.

قال: والأنهار تجري من تحت مساكنهم وذلك قول الله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ والثمار دانية منهم وهو قوله عز وجل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكئ وإن الأنواع من الفاكهة ليقلن لوليّ الله: يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي. قال: وليس من مؤمن في الجنة إلا وله جنان كثيرة معروشات وغير معروشات، وأنهار من خمر وأنهار من ماء وأنهار من لبن وأنهار من عسل، فإذا دعا ولي الله بغذائه أتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغداء. قال: ثم يتخلّى مع إخوانه، ويزور بعضهم بعضاً ويتنعمون في جنانهم في ظلّ ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك كله لكل مؤمن سبعون زوجة حوراء وأربع نسوة من الآدميين، والمؤمن ساعة مع الحوراء وساعة مع الآدميّة، وساعة يخلو بنفسه على الأرائك متكئاً ينظر بعضهم إلى بعض. وان المؤمن ليغشاه شعاع نور وهو على أريكته ويقول لخدّامه: ما هذا الشعاع اللامع لعلّ الجبار لحظني فيقول له خدّامه: قدوس قدوس جلّ جلال الله، بل هذه حوراء من نسائك ممن لم تدخل بها بعد، قد أشرفت عليك من خيمتها شوقاً إليك وقد تعرّضت لك وأحبّت لقاءك،

فلما أن رأتك متكئاً على سريرك تبسمت نحوك شوقاً إليك فالشعاع الذي رأيت والنور الذي غشيك هو من بياض ثغرها وصفائه ونقائه ورقته. قال: فيقول ولي الله: ائذنوا لها فتنزل إليّ فيبتدر إليها ألف وصيف وألف وصيفة يبشرونها بذلك فتنزل إليه من خيمتها وعليهاسبعون حلّة منسوجة بالذهب والفضة مكلّلة بالدر والياقوت والزبرجد صبغهنّ المسك والعنبر بألوان مختلفة يرى مخّ ساقيها من وراء سبعين حلّة طولها سبعون ذراعاً، وعرض ما بين منكبيها عشرة أذرع، فإذا دنت من ولي الله أقبلت الخدام بصحائف الذهب والفضّة فيها الدرّ والياقوت والزبرجد فينثرونه عليها ثم يعانقها وتعانقه فلا يملّ ولا تملّ»[١].

وعن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال:

«أما الجنان المذكورة في الكتاب فإنهن جنة عدن وجنة الفردوس وجنة النعيم وجنة المأوى. قال: وإن لله تعالى جناناً محفوفة بهذه الجنان وإن المؤمن ليكون له من الجنان ما أحبّ واشتهى يتنعم فيهن كيف يشاء وإذا أراد المؤمن شيئاً أو اشتهى إنما دعواه به إذا أراد أن يقول: سبحانك اللهم، فإذا قالها تبادرت إليه الخدام بما اشتهى من غير أن

---

(١) رواه الكليني في الكافي.

يكون طلبه منهم أو أمر به وذلك قول الله عز وجل: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. يعني الخدام. قال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني بذلك عندما يقضون من لذّاتها من الجماع والطعام والشراب يحمدون الله تعالى عند فراغهم، وأما قوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ قال: يعلمه الخدام فيأتون به أولياء الله قبل أن يسألوهم إياه، وأما قوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ قال: فإنهم لا يشتهون شيئاً في الجنّة إلا أكرموا به»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قال:

«الأزواج المطهّرة اللاّتي لا يحضن ولا يحدثن»[2].

وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«طوبى شجرة في الجنة أصلها في دار رسول الله صلى الله عليه وآله، فليس من مؤمن إلا وفي داره غصن من أغصانها لا ينوي في قلبه شيئاً إلا أتاه ذلك الغصن، ولو أن راكباً مجداً سار في ظلها مائة عام لم يخرج منها، ولو أن غراباً طار من أصلها ما بلغ

---

(١) الروضة: ص ٩٥.

(٢) رواه الصدوق في الفقيه.

أعلاها حتى يبياضّ هرماً»[١].

وقال رسول الله ﷺ:

«غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولَقابُ قوسِ أحدِكم أو موضع قدمِه من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة، ولَنَصيفُها ـ خمارها ـ على رأسها خير من الدنيا بما فيها»[٢].

وقال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾:

«ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، وإنّ أدنى لؤلؤةٍ عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يَرى مخّ ساقها من وراء ذلك»[٣].

وقيل لرسول الله ﷺ: أيباضع أهل الجنة؟ قال:

«يُعطىَ الرجل منهم من القوّة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم»[٤].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

---

(١) رواه الصدوق في الأمالي: ص ١٣٣.

(٢) أخرجه البخاري: ج ٤ ص ٢٠.

(٣) الترغيب والترهيب: ج ١٠ ص ٥٣٤.

(٤) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٤١٧.

«إن في الجنّة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها»[1].

وروي أنهﷺ قال:

«ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه إثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت يسمعه الإنس والجنّ، وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي: ج ١٠ ص ١٨.

(٢) الترغيب والترهيب: ج ٤ ص ٥٣٧.

وفاة رسول الله ﷺ

لما تحقق رسول الله ﷺ من دنو أجله خاف من توثّب المنافقين ومن والاهم على الخلافة وكانوا ألف رجل، فعقد لأسامة بن زيد فولآه الراية وأمره على أكثر المهاجرين والأنصار وندبه إلى الخروج بهم إلى الوجه الذي قتل أبوه فيه من بلاد الروم لكيلا يبقى بالمدينة بعد وفاته من يطمع في الإمارة فيستتمَّ الأمر لعليّ عليه السلام فلا ينازعه هناك منازع.

فأمر أسامة فعسكر على أميال من المدينة ورسول الله ﷺ يحث الناس على الخروج مع أسامة، فبينما هو كذلك إذ عرض له المرض الذي توفي فيه فلما أحسّ بالمرض أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وتبعه جماعة من المهاجرين والأنصار، فقال ﷺ: إني أمرت بالاستغفار لأهل البقيع، فلما جاءهم قال: السلام عليكم يا أهل القبور ليهنّئكم ما أصبحتم فيه مما فيه الناس، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أوّلها آخرها، فاستغفر لهم كثيراً، ثم أقبل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له: يا أخي إن جبرئيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كل سنة مرّة وقد عرضه عليّ هذا العام مرّتين ولا أراه إلا لحضور أجلي. ثم قال: يا علي إني خيّرت بين خزائن الدنيا والخلود فيها

وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة خالداً فيها، فإذا أنا متّ فغسّلني واستر عورتي فإنه لا يراها أحد إلا اكمهه الله تعالى، ثم عاد إلى منزله فمكث ثلاثة أيام موعوكاً. ثم إنه خرج إلى المسجد معتمداً على أمير المؤمنين عليه السلام حتى صعد المنبر وخطب، فحَمَد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس قد حان مني خفوقٌ ما بين أظهركم، فمن كان له عندي عدةٌ فليأتني أُعطه إياها ومن كان له عندي دين فليخبرني به. فقام رجلٌ وقال: يا رسول الله إنّ لي عندك عدةً إني تزوجت فوعدتني أن تنحلني ثلاث أنواق، فقال له: أنحلتكها وأفضل. ثم قال: معاشر الناس إنه ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه شراً إلا العمل، والذي بعثني بالحق لا ينجي إلا العمل مع رحمة الله، ولو عصيت لهويت. ثم نزل فصلى بالناس صلاة خفيفة ودخل بيته وكان في بيت أم سلمة فجاءت عائشة فسألته أن ينتقل إلى البيت الذي هي فيه فانتقل إليها. وجاءت الأنصار من غد فأحدقوا بالباب وقالوا لغلامه: استأذن لنا على رسول الله، فقال الغلام: إنه مغشي عليه فجعلوا يبكون، ثم إنه ﷺ أفاق فسمع البكاء فقال: من هؤلاء؟ فقالوا: الأنصار، فقال: من ههنا من أهل بيتي؟ فقالوا: عليّ والعباس. فدعا بهما وخرج متوكّئاً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده واجتمع الناس حوله، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

معاشر الناس إنه لم يمت نبيٌّ قط إلا خلّف تركة وقد خلّفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسكوا بهما فمن ضيّعهما ضيّعه الله، أوصيكم بتقوى الله والإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم.

وصار الناس ممن لم يكونوا في جيش أسامة يعودون رسول الله ﷺ. ثم إن رسول الله ﷺ دعا أسامة بن زيد وقال له: سر على

بركة الله حيث أمرتك بمن أمرتك عليه، وكان قد أمره على جماعة من المهاجين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم، وأمره أن يعبر على قرية وادي فلسطين وهو الموضع الذي قتل فيه أبوه زيد.

فقال أسامة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله تأذن لي بالمقام حتى يشفيك الله فإني إذا خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي قرحة، فقال: أنفذ يا أسامة لما أمرتك فإن القعود عن الجهاد لا يُحبّ. فخرج أسامة من يومه ذلك فعسكر على رأس فرسخ من المدينة فنادى منادي رسول الله: ألا لا يتخلّف عن أسامة أحد ممن أمّرته عليه.

فلما رأى رسول الله ﷺ تثاقل الناس عن الخروج أمر قيس بن سعد بن عبادة وكان سيّاف رسول الله ﷺ والخباب بن المنذر أن يخرجا في جماعة من الأنصار وأن يرحّلا القوم إلى عسكرهم، فخرجوا حتى لحقوا بالعسكر وقالوا لأسامة: إن رسول الله ﷺ لم يرخّص لك في التأخير فسر من قبل أن يعلم بتأخّرك، فارتحل بهم أسامة وانصرف قيس ومن معه إلى رسول الله ﷺ وأعلمه بمسير القوم فقال ﷺ: إن القوم غير سائرين. فلما نزلوا أتى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة نحو أسامة وقالوا له: أين تذهب وتخلّي المدينة ونحن أحوج من كل أحد إلى المقام بها، فقال أسامة: وما ذاك؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ قد نزل به الموت والله لئن خلّينا المدينة لَيَلينَّ الأمر عليّ بن أبي طالب فيبايعه الناس ويستتمّ له الأمر ويفسد علينا جميع ما أبرمناه. فرجع القوم إلى المنزل الأوّل فأقاموا به وبعثوا رسولاً يتعرّف لهم الخبر وعلّة رسول الله فأتى الرسول عائشة وسألها عن ذلك سراً فقالت له: امض إلى أبي بكر وعمر وقل لهما: إن رسول الله قد ثقل حاله وازداد مرضه فلا يبرح أحد منكم وأنا أعرّفكم الخبر وقتاً بعد وقت.

فلما اشتدت علّة رسول الله دعت عائشة صهيباً الرومي وقالت له: إمض إلى أبي بكر وعمر وأعلمهما أن رسول الله ﷺ في حال الإياس وقل له: يدخل هو وعمر وأبو عبيدة بالليل. فأتاهم صهيب وأخبرهم برسالة عائشة فأخذوا بيده وأدخلوه على أسامة وأخبروه بما أرسلت عائشة، فأمرهم وقال: لا يعلمنّ بكم أحد فإن عوفي رسول الله رجعتم إلى معسكركم وإن قبض رسول الله ﷺ عرّفوني ذلك فأدخل فيما دخل فيه الناس.

فدخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ليلاً إلى المدينة ورسول الله ﷺ مغشيٌّ عليه فلما أفاق قال: والله لقد طرق المدينة هذه الليلة شرّ عظيم، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: الذين أمرتهم بالخروج في جيش أسامة رجع منهم قوم إلى المدينة مخالفين لأمري، ألا وإني إلى الله منهم بريء، ويحكم نفّذوا جيش أسامة ـ ثلاثاً ـ لعن الله من تخلّف عنه، حتى قالها ـ ثلاثاً ـ، وكان علي بن أبي طالب والفضل ابن عباس لا يفارقانه في مرضه.

وكان بلال المؤذّن يأتي في وقت كل فريضة إلى النبي ﷺ فيقول: الصلاة يا رسول الله، فإن قدر على الخروج صلّى بالناس وإن لم يقدر أمر عليّ بن أبي طالب أن يصلّي بهم. فلما أصبح رسول الله ﷺ من ليلته التي قدم فيها القوم إلى المدينة أتاه بلال يؤذّن بالصلاة فوجده قد ثقل عن الخروج فنادى الصلاة يرحمكم الله، فأومى رسول الله ﷺ بيده ـ وكان رأسه في حجر عليّ ـ أن يصلي بالناس بعضهم فإني مشغول بنفسي فقالت عائشة: مروا أبا بكر يصلّي بهم، وقالت حفصة: مروا عمر، فلما سمع رسول الله ﷺ كلامهما ورأى حرص كل واحدة على تقديم أبيها قال لهنّ: اعففن، ثم أغمي عليه.

فقالت عائشة لبلال: ان رسول الله قد أغمي عليه ورأسه في حجر عليّ لا يقدر على مفارقته فمر أبا بكر فليصلّ بالناس، فظنّ بلال أن ذلك عن رسول الله فقال للناس: قدّموا أبا بكر، وكان عمر وأبو بكر ومن معهما قد دخلا المسجد، فأرسلت عائشة صهيب الرومي إلى أبي بكر وقالت له أن يقول لأبي بكر أنها قد أمرت بلالاً ليقول للناس أن يصلّوا بصلاة أبي بكر، فتقدّم حتى يأتيك بلال بالأمر، فتقدم أبو بكر إلى المحراب، فلما كبّر أفاق رسول الله من غشوته فسمع التكبيرة، فقال لعلي: من يصلي بالناس؟ قال: يا رسول الله إن عائشة وحفصة أمرتا بلالاً أن يأمر أبا بكر أن يصلي بالناس، فقال: سنّدوني وأخرجوني إلى المسجد، فقد نزلت والله بالإسلام فتنة ليست بهنيئة.

ثم نظر إلى عائشة وحفصة نظر المغضب وقال: أما إنكنّ كصويحبات يوسف يريد بذلك أن صويحبات يوسف قد كذبن عليه، وأردن منه مراد الشيطان الغوي، فشبّه رسول الله ﷺ عائشة وحفصة بهنّ حيث كذبن عليه لقولهنّ لبلال:

إن رسول الله ﷺ مشغول بنفسه وعلي لا يقدر على مفارقته فأمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم خرج ﷺ معصّب الرأس يتهادى بين عليّ وبين الفضل بن العباس ورجلاه يخطان إلى الأرض من الضعف فلما رأى المسلمون رسول الله قد دخل المسجد على تلك الحالة عظم ذلك عليهم، فتقدّم ﷺ ونحّى أبا بكر عن المحراب وصلّى بالناس جالساً وبلال يسمع التكبير حتى أكمل رسول الله صلاته ثم التفت فلم ير أبا بكر فقال: أيها الناس ألا تعجبوا من ابن أبي قحافة وأصحابه، أنفذتهم تحت راية أسامة إلى الوجه الذي وجّهتهم له فرجعوا إلى المدينة ابتغاء الفتنة، ألا وان الله أركسهم فيها، عرّجوا بي إلى المنبر فقام منهوكاً حتى أجلسوه على أدنى مرقاة منه، فحمد الله تعالى وأثنى

عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس إني مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا بعدي أبداً؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فتمسكوا بهما ولا تتفرّقوا ولا تتقدموا أهل بيتي فتمرقوا ولا تتأخروا عنهم فتزهقوا وأوفوا بعهدي ولا تنكثوا ببيعتي التي بايعتموني عليها. اللهم إني قد بلّغت ما أمرتني به ونصحت لهم ما استطعت وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب. ثم قام فدخل حجرته، ثم أمر من استدعى له أبا بكر وعمر ومن كان في المسجد فقال لهم:

ألم آمركم أن تنفذوا مع جيش أسامة!؟ فقال أبو بكر: إني كنت قد خرجت ثم عدت لأجدّد بك عهداً، وقال عمر: إني لم أخرج لأني لم أحب أن أسأل عنك الركبان.

فقال رسول الله ﷺ: نفذوا جيش أسامة ـ وكرّرها ثلاثاً ـ لعن الله من تأخر عن أمره، ثم أغمي عليه لعظم ما لحقه من التعب والأسف على من تأخر عن أمره، فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه وولده.

ثم أفاق إليهم وقال: إئتوني بدواة بيضاء أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً، ثم أغمي عليه فقام بعض من حضر ليأتي بالدواة فقال عمر: ارجع فإن النبي يهجر، ثم تلاوموا بينهم فقال بعضهم: أطيعوا رسول الله واتوه بالدواة والكتف، وقال آخرون: أطيعوا عمر، وقال آخرون: إنا لله وإنّا إليه راجعون، لقد أشفقنا من مخالفتنا لرسول الله.

فلما أفاق قال بعض: ألا نأتيك بالدواة والكتف يا رسول الله؟ فقال: أما بعد الذي قلتم فلا، ولكني أوصيكم بأهل بيتي خيراً،

وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا. وقال بعض العارفين في هذا المعنى:

أوصى النبي فقال قائلهم
قد ظلّ يهجر سيد البشر
ورأى أبا بكر أصاب ولم
يهجر وقد أوصى إلى عمر

وبقي عند رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وأهل بيته، فقال العباس: يا رسول الله إن يكن هذا الأمر فينا مستقرّاً فبشرنا، وإن كنت تعلم أنا نغلب عليه فأوص بنا.

فقال النبي ﷺ: أنتم المستضعفون من بعدي وصمت، فنهضوا وهم يبكون وقد آيسوا من النبي ﷺ فلما خرجوا من عنده قال النبي لهم: ردوا عليّ بن أبي طالب وعمي العباس. فلما حضروا قال للعباس: يا عم تقبل وصيتي وتنجز عدتي وتقضي ديني؟ قال العباس: يا بن أخي عمّك شيخ كبير ذو عيال كثيرة وأنت تباري الريح سخاء وكرماً، وعليك وعدٌ لا ينهض به عمك. فأقبل بوجهه إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وقال: يا أخي تقبل وصيتي، وتنجز عدتي، وتقضي ديني وتقوم بأمر أهلي من بعدي؟ قال علي عليه السلام: نعم يا رسول الله فداك أبي وأمي. فقال له رسول الله ﷺ: ادن مني، فدنا منه فضمّه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه وتعانقا وبكى كلّ منهما ثم نزع خاتمه من اصبعه، وقال له: خذ هذا فضعه في يدك ودعا بسيفه ودرعه ولامة حربه وفرسه وناقته وبغلته والتمس عصابته التي كان يشدّها على بطنه إذا لبس سلاحه وخرج إلى الحرب، فدفع ذلك كله إليه وقال: امض به على بركة الله إلى منزلك.

واستأذن ابن عباس على رسول الله ﷺ فأذن له فلما دخل عليه قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله قد دنا أجلك؟ قال ﷺ: نعم.

قال: يا رسول الله فما تأمرني به؟ قال ﷺ: يا بن عباس خالف من خالف عليّا ولا تكن لهم ظهيراً ولا وليّا، فقال ابن عباس: يا رسول الله فلم لم تأمر الناس بترك مخالفته؟ فبكى ﷺ حتى أغمي عليه فلما أفاق قال: يا بن عباس سبق الكتاب فيهم وعلم ربي. والذي بعثني بالحق نبياً لا يخرج أحد ممن خالفه من الدنيا وأنكر حقّه حتى يغيّر الله ما به من نعمة. ثم قال ﷺ: يا بن عباس إذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راض فاسلك طريق عليّ بن أبي طالب، ومل معه حيث ما مال، وارض به إماماً، وعاد من عاداه، ووال من والاه، يا بن عباس احذر أن يدخلك شك فيه فإن الشك في عليّ كفر بالله.

ثم دخل عليه أصحابه يعودونه فلما اجتمعوا قام أبو بكر وقال: يا رسول الله متى الأجل؟ قال: قد حضر. قال أبو بكر: فإلى أين المنقلب؟ قال ﷺ: إلى سدرة المنتهى وجنّة المأوى والرفيق الأعلى والكأس الأوفى والعيش المهنّأ، قال أبو بكر: فمن يلي غسلك منا؟ قال: رجل من أهل بيتي الأدنى فالأدنى، قال أبو بكر: ففيما نكفّنك؟ قال ﷺ: في ثيابي هذه، أو في حلّة يمانية أو في بياض مصر. قال أبو بكر: فكيف الصلاة عليك؟ قال ﷺ: فارتجّت الأرض بالبكاء، فقال لهم النبي ﷺ: مهلاً عفا الله عنكم فإذا غُسّلت وكفّنت فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن الله تعالى أوّل من يصلي علي، ثم الملائكة، ثم ادخلوا عليّ زمرة زمرة وليبدأ بالصلاة عليّ الأدنى من أهل بيتي، ثم النساء، ثم الصبيان زمراً زمراً. قال: فمن يدخلك في قبرك؟ قال: الأدنى فالأدنى من أهل بيتي مع الملائكة لا ترونهم، فقوموا عنّي فأذنوا على من ورائكم، فقاموا.

ثم استأذن عليه جماعة أخرى فسلّموا عليه فردّ عليهم السلام ورحّب بهم فقام من بينهم عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ وقال: فداك أبي وأمي يا رسول الله من يغسّلك منا إذا فارقت الدنيا؟ فقالﷺ: أخي وابن عمي علي بن أبي طالب، ألا إنه لا يهم بعضو مني إلا أعانته الملائكة عليه فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله فمن يصلي عليك منا؟ فقال النبيﷺ: يا عمار يرحمك الله، ثم قال: أين أخي وابن عمي عليّ بن أبي طالب؟ فأجابه بالتلبية: لبيك يا رسول الله صلى الله عليك، فقالﷺ: يا بن عمي اجلسني وسنّد ظهري فأجلسه وسنّده بصدره ثم قالﷺ: يا بن العم إذا نزل بي الموت فضع رأسي في حجرك فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثم وجهني إلى القبلة، ثم غسلني وكفّني في طمريّ هاتين أو في بياض مصر أو حبرة، ولا تغال في كفني، ثم صلِّ عليَّ أوّل الناس، واعلم أن أوّل من يصلي عليّ الجبار جلّ جلاله ثم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ثم الحافون بالعرش لا يحصي عددهم إلا الله ثم سكان أهل كل سماء فسماء، ثم أهل بيتي.

ثم قال: يا بلال عليّ بالناس. فلما اجتمعوا قال رسول اللهﷺ لعلي بن أبي طالب: اقعدني على مرتفع وسنّدني فأقامه وهو معصّب الرأس حتى أجلسه على كرسي وعليّ بن أبي طالب لازم بمنكبيه، فحمد الله وأثنى عليه وذكر نفسه المقدسة ونعاها، ثم قال: معاشر الناس أيّ نبي كنت لكم؟ قالوا جميعهم: خير نبي. قال: ألم أجاهد بين أظهركم ألم تكسر رباعيتي؟ ألم يعفّر جبيني؟ ألم تسلْ الدماء على وجهي حتى وقعت لجنبي؟ ألم أكابد الشدّة والجهد مع جهال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟ قالوا بأجمعهم: بلى يا رسول الله، لقد كنت على البلاء صابراً ولنعمائه شاكراً، وعن المنكر ناهياً،

وبالمعروف آمراً، فجزاك الله عنا أفضل الجزاء.

فقال النبي ﷺ: وأنتم جزاكم الله خيراً. ثم قال: أيها الناس لا نبي بعدي ولا سنّة بعد سنتي فمن ادعى ذلك فهو في النار. أيها الناس احيوا القصاص، احيوا الحق لصاحب الحق ولا تفرّقوا وسلّموا تسليماً: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾. أيها الناس إن ربي حكم وأقسم أن لا يجاوز ظلم ظالم إلا بعفو أو قصاص، فأنشدكم بالله أي رجل كانت له من قبل محمد مظلمة أو قصاص إلا قام فيقتصَّ مني فإن القصاص في الدنيا أحب إليّ من القصاص في الآخرة على رؤوس الأشهاد. فقام إليه رجل يقال له سوادة بن قيس فقال له: فداك أبي وأمي يا رسول الله أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء وبيدك القضيب الممشوق، فرفعت القضيب وأنت تريد الناقة فأصاب بطني فلا أدري عمداً أو خطأً. فقال النبي ﷺ: معاذ الله يا سوادة أن أكون تعمّدت، ثم قال: يا بلال قم إلى إبنتي فاطمة وأتني بالقضيب الممشوق فخرج بلال ينادي في شوارع المدينة، من ذا الذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة، ثم أتى فاطمة عليها السلام فقال: يا فاطمة قومي فناوليني القضيب الممشوق فإن رسول الله ﷺ يريده، فصاحت فاطمة: ما يصنع رسول الله بالقضيب الممشوق وليس هذا يوم القضيب؟

فقال بلال: يا فاطمة أما علمت أن أباك خطب الناس ونعى نفسه، وودّع أهل الدّين والدنيا. فصاحت فاطمة وقالت: واحزناه عليك يا أبتاه، من للفقير والمسكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب؟ ثم ناولت بلالاً القضيب فخرج به حتى ناوله رسول الله ﷺ فقال ﷺ: أين الشيخ؟ فقال: ها أنا ذا يا رسول، فقال له: قم فاقتصّ مني حتى ترضى، فقال الشيخ: يا رسول الله اكشف لي عن بطنك،

فكشف ﷺ عن بطنه فقال الشيخ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك؟ قال ﷺ: قد أذنتك، فوضع الشيخ فمه على بطن رسول الله ﷺ وقال: أعوذ ببطن رسول الله من النار يوم القيامة، فقال النبي ﷺ لسوادة: أتعفو أم تقتصّ؟ فقال الشيخ: بل اعفو يا رسول الله، فقال ﷺ: اللهم اعف عن سوادة بن قيس مما عفا عن نبيّك.

ثم جعل يوصي أصحابه بالتمسك بسنته والاقتداء بعترته ويحذّرهم مخالفة أهل بيته، ثم إنه أمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يضجعه على فراشه. وقام القوم عنه وقد آيسوا منه، فلما كان الغد حجب الناس عنه وكان علي عليه السلام لا يفارقه، فخرج عليه السلام لحاجة ودخل عليه نساؤه فأفاق، فافتقد علياً وقال لأزواجه: ادعوا لي أخي وصاحبي، فقالت عائشة: ادعوا له أبا بكر فدعي فلما نظر إليه أعرض بوجهه عنه فقام أبو بكر وقال: لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ فلما خرج قال: ادعوا لي أخي وصاحبي، فقالت حفصة: ادعوا له عمر فدعي فلما نظر إليه أعرض بوجهه عنه فانصرف، وقال: لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ، فلما خرج قال النبي ﷺ: ادعوا لي أخي وصاحبي، فقالت أم سلمة: ادع له علياً فوالله ما يريد غيره. فدعي علي عليه السلام فلما رآه أوى إليه فانكبّ إليه من تحت ثوبه فناجاه طويلاً ثم قام علي عليه السلام ناحية فقال له الناس: ما الذي أوعز إليك؟ قال: علّمني ألف باب من العلم انفتح لي من كل باب ألف باب وأوصاني بما أنا عامل به إن شاء الله.

ثم إن أم سلمة استأذنت على رسول الله ﷺ فأذن لها فدخلت وسلّمت عليه ثم قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أراك متغيّراً. قال ﷺ نُعيت إليّ نفسي فسلام لك مني، فلا تسمعون بعد اليوم

صوت محمد أبداً. فقالت أم سلمة: واحزناه لا تدركه الندامة عليك يا محمد، فقال ﷺ: يا أم سلمة ادع لي حبيبتي وقرّة عيني وثمرة فؤادي المظلومة بعدي فاطمة. فأقبلت فاطمة عليها السلام ولما رأته قبّلت رأسه وخدّيه وقالت: نفسي لك الفداء واكرباه لكربك يا أبتاه، ففتح ﷺ عينيه وقال: يا بنيّة لا كرب على أبيك بعد اليوم، فقالت: يا أبتاه إني أراك مفارق الدنيا، فقال لها: بنيّة إني مفارقك فسلام لك مني، فقالت: يا أبتاه فأين الملتقى يوم القيامة؟ قال ﷺ: عند الحساب، قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: فعند الشفاعة لمحبيك، قالت: فإن لم ألقك عند الشفاعة؟ قال: عند الصراط جبرئيل عن يميني وميكائيل عن شمالي ويعلك علي بن أبي طالب أمامي بيده لواء الحمد والملائكة من خلفي ينادون ربّ سلّم أمّة محمد من النار ويسّر عليهم الحساب. قالت: فأين أمي خديجة؟ قال: في قصر من لؤلؤة بيضاء له أربعة أبواب، ثم أغمي عليه ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب عليه السلام فانكبت عليه تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وهي تقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف به الهلاّك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وفواضل

ففتح رسول الله ﷺ عينيه وقال لها بصوت ضعيف: يا بنية هذا قول عمّك أبي طالب لا تقولينه ولكن قولي:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ﴾.

فبكت طويلاً، ثم أومأ ﷺ إليها بالدنو منه، فدنت منه حتى

أدخلها تحت ردائه فناجاها فرفعت رأسها وعينيها تهملان دموعاً ثم قال لها: ادني مني فدنت منه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك فتعجّب الحاضرون من ذلك، فقالتعليها السلام: نعى إليّ نفسه فبكيت، ثم قال لي: يا بنية لا تجزعي على أبيك من الموت فإني سألت ربي أن يجعلك أوّل أهل بيتي لحوقاً بي وأخبرني ربي أنه استجاب لي، فضحكت. ثم قال: يا بنيّة ادعي لي ولديّ الحسن والحسين. فدعت بهما فلما رآهما قبّلهما وشمّهما وجعل يترشفهما وعيناه تهملان دموعاً، ثم أغمي عليه فصاح الحسن والحسينعليهما السلام: يا جداه أنفسنا لنفسك الفداء ووجهنا لوجهك الوقاء وجعلا يصيحان ويبكيان حتى وقعا على رسول اللهصلى الله عليه وآله، فأراد عليعليه السلام أن ينحيهما عنه فأفاقصلى الله عليه وآله وقال: يا عليّ تنحّي عني ابنيّ؟ دعني أشمهما ويشماني وأتزوّد منهما ويتزودان مني فهذا وداع لا تلاق بعده، أما انهما سيظلمان بعدي ويقتلان ظلماً فلعنة الله على قاتلهما وظالمهما، ثم قال: أما أنت يا أبا محمد فتقتل مسموماً مخذولاً مضطهداً، وأما أنت يا أبا عبد الله فتقتل عطشاناً غريباً فلعنة الله على أمّة قتلوك يا بني.

وكان جبرئيلعليه السلام ينزل على رسول اللهصلى الله عليه وآله في مرضه في كل يوم وليلة فيقول: السلام عليك يا رسول الله إن ربّك يقرئك السلام ويقول: كيف تجدك وهو أعلم بك ولكنّه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً إلى ما أعطاك وأراد أن يكون عيادة المريض سنّة في أمّتك.

فإن نزل جبرئيل وسأل الرسولصلى الله عليه وآله عن حاله وكان حال الرسولصلى الله عليه وآله موجباً (أي حفيفاً) قالصلى الله عليه وآله لجبرئيلعليه السلام: أجدني موجباً، فيقول له جبرئيلعليه السلام: أحمد الله تعالى على ذلك فإنه يحب أن يحمد ويزيد في شكره. وإن كان النبيصلى الله عليه وآله موجعاً، قالصلى الله عليه وآله: أجدني وجعاً فيقول جبرئيل: يا محمد إن ربك لم يشدّد عليك، وما من أحد من

خلقه أكرم عليه منك، ولكن أحب أن تحمده وتشكره حتى تلقاه مستوجباً للدرجة العليا والثواب الدائم والكرامة على جميع الخلق.

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: إن جبرئيل نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله في الوقت الذي ينزل عليه فيه فلما أحسست بنزوله قلت لمن كان في البيت أن يتنحّى. فلما دخل جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله جلس عند رأسه ثم قال: السلام عليك يا رسول الله، إن ربّك يقرئك السلام ويسألك كيف تجدك وهو أعلم بك فقال له: أجدني ميّتاً. فقال جبرئيل: يا محمد أبشر فإن الله تعالى إنما أراد أن يبلغك بما تجد ما أعدّ لك من الكرامة.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ثم إن رجلاً استأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله فخرجت إليه وقلت له: ما الذي تريد؟ قال: أردت الدخول على رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: لست تصل إليه فما حاجتك؟ فقال الرجل: إنه لا بد من الدخول عليه، فدخل علي عليه السلام واستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن له، فدخل الرجل وجلس عند رأسه، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله فقال له: وعليك السلام فما حاجتك؟ فقال الرجل: إني رسول الله إليك، فقال عليه السلام: وأي رسل الله أنت؟ فقال: أنا ملك الموت أرسلني إليك ربك وهو يقرئك السلام ويخيّرك بين لقائه وبين الرجوع إلى الدنيا، فقال صلى الله عليه وآله: أمهلني حتى ينزل جبرئيل عليه السلام فيسلّم عليّ وأسلم عليه وأستشيره، فخرج ملك الموت من عنده واستقبله جبرئيل في الهواء فقال: يا ملك الموت قبضت روح محمد؟ قال: لا يا جبرئيل سألني أن لا أقبضه حتى تأتيه فتسلّم عليه ويسلّم عليك ويستشيرك، فقال جبرئيل: يا ملك الموت أما ترى أبواب السماء مفتّحة لروح محمد؟ أما ترى الحور العين قد تزينت لمحمد.

ثم نزل جبرئيل على النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، فقال: وعليك السلام يا حبيبي جبرئيل، إن ملك الموت استأذن عليّ فأذنت له فأراد قبض روحي فاستنظرته مجيئك، فقال له جبرئيل: يا محمد إن ربك مشتاق، وما استأذن ملك الموت على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك فقال النبي ﷺ: يا جبرئيل إن ملك الموت قد خيّرني عن ربي بين لقائه وبين الرجوع إلى الدنيا، فما ترى يا حبيبي جبرئيل: يا محمد ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، لقاء ربك خيرٌ لك.

فقال النبي ﷺ: لقاء ربي خيرٌ لي، لا تبرح يا حبيبي جبرئيل حتى يجيء ملك الموت. فما كان إلا ساعة حتى نزل ملك الموت فقال: السلام عليك يا محمد، فقال: وعليك السلام يا ملك الموت ما تريد أن تصنع؟ قال: قبض روحك، فقال النبي ﷺ: إمض لما أمرت به، فقال جبرئيل: يا محمد هذا آخر يوم أهبط فيه إلى الدنيا فقال ﷺ: يا حبيبي جبرئيل أدن منّي فدنا منه فكان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله وملك الموت قابض لروحه المقدسة، فقال جبرئيل: يا ملك الموت لا تعجل حتى أعرج إلى ربي وأهبط، فقال ملك الموت: قد صارت روحه في موضع لا أقدر على تأخيرها، فعند ذلك قال جبرئيل: يا محمد هذا آخر هبوطي إلى الدنيا، إنما كنت حاجتي فيها والآن اصعد إلى السماء ولا أنزل إلى الأرض أبداً.

ثم ان رسول الله ﷺ قال لعلي عليه السلام: ادن مني يا أخي قد جاء أمر الله، فدنا منه حتى أدخله تحت ثوبه الذي عليه ووضع ﷺ فاه في أذنه فناجاه طويلاً حتى خرجت نفسه الطيبة ﷺ.

وكان ﷺ كلما كشف الثوب عن وجهه نظر إلى جبرئيل عليه السلام فقال: عند الشدائد لم تخذلني يا حبيبي؟ فقال جبرئيل: يا محمد ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾. ثم قال جبرئيل: يا ملك الموت إحفظ وصيّة الله في روح محمد. فلما قضى نحبه ويد عليّ عليه السلام تحت حنكه الشريف وفاضت نفسه الشريفة مسح علي عليه السلام بها وجهه ووجهه إلى القبلة وغمّض عينيه، ثم انسلّ عليه السلام من تحت الثوب المغطى به وهو يبكي وقال لمن حضر: أعظم الله أجوركم في نبيكم فقد قبضه الله إليه.

فارتفعت أصوات الناس بالبكاء والنحيب، ثم إن أمير المؤمنين علياً عليه السلام استدعى الفضل بن عباس وأمره أن يناوله بعد أن عصّب عينيه ثم غسّله-صلوات الله عليه كما أمره، ولما فرغ من غسله حنّطه وكفّنه، وبعث عليّ عليه السلام يزيد بن سهل يحفر له لحداً في حجرته، ثم وضع علي عليه السلام الرسول ﷺ على سريره على شفير قبره، ثم صلّى عليه وحده فلم يشركه أحد في الصلاة عليه.

وكان المسلمون يخوضون فيمن يؤمهم في الصلاة عليه وأين يدفن، فخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى من كان في المسجد من بني هاشم والمهاجرين والأنصار ممن لم يحضر السقيفة وقال عليه السلام:

إن رسول الله ﷺ إمامنا حيّاً وميّتاً فليدخل إليه منكم فوج فوج فيصلّون عليه، وان الله تعالى لم يقبض نبيّاً من أنبيائه في مكان إلا ارتضاه لرمسه فيه، وإني لدافنه في حجرته التي قبض فيها، فأطاعه القوم ورضوا بقوله، ثم إن أمير المؤمنين عليه السلام نزل القبر هو والعباس ابن عبد المطلب والفضل بن عبّاس فنادت الأنصار من وراء البيت: يا علي إنّا نذّكرك الله وحقنا اليوم من رسول الله ﷺ، أن يدخل منا رجل

يكون له حظ في مواراة رسول الله ﷺ. فقال عليه السلام: ليدخل أُويس بن خولي وكان بدرياً فاضلاً من الخزرج. فلما دخل قال له علي عليه السلام: انزل القبر، فنزل، فوضع أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله ﷺ على يديه ودلاه في حفرته، فلما حصل في الأرض قال له: اخرج يا أويس فخرج. ونزل عليّ عليه السلام القبر وكشف عن وجه رسول الله ﷺ ووضع خدّه الأيمن على الأرض موجَّهاً إلى القبلة، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب.

وكانت وفاة الرسول الأكرم ﷺ يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة. وفات أكثر الناس الصلاة عليه ولم يحضروا دفنه واشتغلوا بأمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة. واغتنم أبو بكر ومن معه الفرصة لعلمه أنه لو توانى عن طلب الخلافة حتى يفرغ أمير المؤمنين من تجهيز رسول الله ﷺ، لم يستتم لهم ما يريدون. فسبقوا إلى ولاية الأمر، وذلك لاختلاف الأنصار فيما بينهم وكراهية الطلقاء والمنافقين والمؤلّفة قلوبهم لأمير المؤمنين علي عليه السلام. وهم قد علموا أنه لو تأخر الأمر حتى يفرغ بنو هاشم من تجهيز رسول الله ﷺ، لاستقرّ الأمر مقرَّه ولتولّى الأمر أمير المؤمنين عليه السلام فيخيبوا مما أملوه، ولذلك سابقوا إلى طلب الخلافة...

موت الولد

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«ولد يقدّمه الرجل أفضل من سبعين ولداً يخلّفهم بعده كلّهم قد ركبوا الخيل وجاهدوا في سبيل الله»[1].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال:

«من قدّم من المسلمين ولدين يحتسبهما عند الله، حجباه من النار بإذن الله»[2].

وقال عليه السلام:

«إنّ الله إذا أحبّ عبداً قبض أحبّ ولده إليه»[3].

وقال عليه السلام:

«ثواب المؤمن من ولده إذا مات الجنّة، صبر أو لم يصبر»[4].

---

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢١٨ رقم ١.
(٢) الكافي: ج ٣ ص ٢١٩ رقم ٦.
(٣) المصدر السابق: رقم ٥.
(٤) المصدر السابق: رقم ٨.

وقال ﷺ:

«إن الله ليعجب من الرجل يموت ولده وهو يحمد الله فيقول: يا ملائكتي؛ عبدي أخذت نفسه وهو يحمدني»[1].

وقال رسول الله ﷺ:

«لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنّة من النار، فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ: أو اثنان، قال: أو اثنان»[2].

(١) الكافي: ج ٣ ص ٢١٩ رقم ٩.

(٢) مجمع الزوائد: ج ٣ ص ٨.

الموت والنوم

إن أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله وسنّة رسول الله تعرفنا على أحوال الموتى بشكل عام وانهم منقسمون إلى سعداء وأشقياء. أما حال زيد أو عمر بعينه فلا ينكشف ولا يعرف. فإننا إن عوّلنا على إيمان زيد مثلاً أو عمر فلا ندري على ماذا مات وكيف ختم له؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهري فإن التقوى محلّها القلب، وهي غامضة تكاد تخفى على صاحب التقوى نفسه فكيف على غيره. فلا حكم بالصلاح من دون التقوى، حيث قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

فلا يمكن إذاً معرفة حكم زيد وعمر إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت في قلب كل إنسان، ولكن الإنسان هو الذي جعل عليها غشاوة كثيفة بسبب شهواته وانشغالاته الدنيوية. حتى صار لا يبصر ولا يتصوّر أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

عن عين قلبه. ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم أنهم نظروا إلى عالم الملكوت وشاهدوا عجائبه وشاهدوا حال الموتى في عالم الملكوت فأخبروا عنهم وما يجري عليهم. ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ، وعن حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبر أن الله أقعده بين يديه. ومثل هذه المشاهدات لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء. أما نحن فيمكن أن يكون لنا درجة من المشاهدة ولكنها مشاهدة ضعيفة وهي المشاهدة في المنام. وهي مرتبة من مراتب أنوار النبوة، قال رسول الله ﷺ:

«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[1].

ولكنه أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب، ولذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح والصادق. أما من كثر كذبه فلا تصدق رؤياه، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام. ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام الإنسان طاهراً وهو إشارة أيضاً إلى طهارة الباطن. فطهارة الباطن هي الأصل أما طهارة الظاهر فهي تكملة وتتمة لها، وكلما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل، كما انكشف لرسول الله ﷺ في النوم دخول مكة، فنزل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[2].

وقلّ ما يخلو الإنسان عن منامات دلّت على أمور فوجدها صحيحة. والرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم: ج ٧ ص ٥٤.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

وبدائع فطرة الآدمي، وهي من أوضح الأدلة على عالم الملكوت، ولكن الخلق عنه غافلون كغفلتهم عن سائر عجائب القلب.

إن القول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره، ولكن يمكن أن نضرب لذلك مثلاً تفهم منه المقصود، وهو أن تعلم أن القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور، وأن كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه باللوح أو بالكتاب المبين أو بإمام مبين كما ورد في القرآن، فجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين. ولا تظنّن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد وان الكتاب من ورق، بل ينبغي أن تفهم أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق، وان كتاب الله لا يشبه كتاب الخلق، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم. بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت المقادير في اللوح المحفوظ يضاهي ثبوت كلمات القرآن وحروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه، فإنه مسطور فيه حتى كأنه ينظر إليه، ولكن لو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً.

فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم معنى كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه.

اللوح في المثال كمرآة ظهرت فيها الصور، فلو وضع في مقابل المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب. فالقلب مرآة تقبل ما ينقش عليها من العلوم واللوح مرآة نقوش العلوم كلها، فالعلوم كلها موجودة فيه. واشتغال القلب بالشهوات والأمور الحسية بمثابة الحجاب المرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت. فإن هبّت ريح حركت هذا

الحجاب ورفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف. وقد يثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الأمر الغالب. والإنسان ما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورده عليه الحواس من عالم الملك والشهادة وهو بنفسه حجاب عن عالم الملكوت، ومعنى النوم أن تركد الحواس، فإذا تخلص الإنسان منها ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ، فيقع في قلبه شيء مما في اللوح، كما تقع الصورة من مرآة على مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما. إلا أن النوم يمنع الحواس عن العمل ولكن لا يمنع الخيال عن عمله. فما يقع في القلب يبادر إليه الخيال فيحاكيه بمثال يشبهه، وتكون المتخيلات أثبت في الحافظة من غيرها، فيبقى الخيال في الذاكرة، حتى إذا انتبه النائم من نومه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج إلى مفسّر ينظر إلى هذا الخيال ليرى أنه حكاية عن أي معنى من المعاني، فيرجع إلى المعاني ليرى المناسبة بينها وبين المتخيّل.

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في عالم التعبير ويكفيك في ذلك مثال واحد؛ وهو أن رجلاً قال لابن سيرين: رأيت كأن بيدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء؟ فقال: أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في شهر رمضان. فقال: صدقت.

فروح الختم هو المنع ومعناه هنا أنه مانع للناس من الأكل والشرب والنكاح.

فهذه نبذة يسيرة من بحر عالم الرؤيا التي لا تنحصر عجائبه، وكيف لا وهو أخو الموت، وهو يشبهه من وجه ضعيف، لأثره في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل. أما الموت فإنه يكشف الغطاء بالكامل حتى يرى الإنسان نفسه عند انقطاع النفس من غير تأخير إما محفوفة بالأنكال والمخازي

والفضائح وإما محفوفة بالنعيم المقيم وملك كبير لا آخر له. وعند ذلك يقال للأشقياء:

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وقال لهم أيضاً:

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

وإليهم الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[3].

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر بباله قط ولا اختلج به ضميره. فلو لم يكن للعاقل هم ولا غمّ إلا التفكر في أخطار تلك اللحظة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر.

فالعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا، والأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهالينا وذرياتنا بل وبأعضائنا مع أنا نعلم يقيناً مفارقة جميع ذلك لنا!؟

فأين من ينفث روح القدس في روعنا فيذكرنا بقول رسول الله ﷺ حيث قال:

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الطور، الآيتان: ١٥ و١٦.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

«أحبب ما أحببت فإنك مفارقه، وعش ما شئت فإنك ميّت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به»[1].

أما من كان ذا بصيرة وانكشف له بعين اليقين هذه الحقائق كان في الدنيا كعابر سبيل، فلا يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولا يخلّف ديناراً ولا درهماً. وقد قال رسول الله ﷺ لأمته في القرآن الكريم:

﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

وإنما أمة الرسول من اتبعته وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة. وبقدر ما يقبل الإنسان على الدنيا يعدل عن سبيل الله، فيلتحق بالذين قال الله تعالى فيهم:

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[3].

فلو خرج الإنسان من مكمن الغرور وأنصف نفسه؛ لعلم أنه من خين يصبح إلى حين يمسي لا يسعى إلا وراء الحظوظ العاجلة، وأنه لا يتحرك إلا لعاجل الدنيا، ومن ثم يطمع أن يكون غداً من أمة رسول الله ﷺ وأتباعه. فما أبعد ظنّه وما أبرد طمعه:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[4].

---

(١) رواه الصدوق في الفقيه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٣) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

(٤) سورة القلم، الآيتان: ٣٥ و٣٦.

سعة رحمة الله

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[(١)].

وقال الله تعالى أيضاً:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوام، فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخّر تسعاً وتسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة»[(٣)].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٣) أخرجه مسلم: ج ٨ ص ٩٦.

وقال ﷺ:

«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين: هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم يا ربنا، فيقول: لم؟ فيقولون: رجونا عفوك ومغفرتك، فيقول: قد أوجبت لكم مغفرتي»(١).

وقال ﷺ:

«يقول الله يوم القيامة: أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام»(٢).

وقال النبي الأكرم ﷺ:

«إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، فيقولون: ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار؟ فيقولون: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عز وجل ما قالوا، فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون، فإذا رأى ذلك الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾»(٣).

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٥٨.

(٢) أخرجه الترمذي: ج ١٠ ص ٦١.

(٣) الدر المنثور: ج ٤ ص ٩٢.

وقال ﷺ:

«الله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها»[١].

وقال ﷺ:

«ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمّة محمد؛ أمّا ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنّة برحمتي»[٢].

وعن رسول الله ﷺ أيضاً أنه قال:

«إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً لكل سجل منها مثل مدّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك ملائكتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إنّ لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليكم اليوم. فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفّة والبطاقة في كفّة، وطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع الله شيء»[٣].

---

(١) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٢١٣.

(٢) مجمع الزوائد: ج ١٠ ص ٣٥٥.

(٣) أخرجه ابن ماجة: رقم ٤٣٠٠.

وقال ﷺ:

«إن الله تعالى يقول للملائكة: من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار. قال: فيُخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به.

ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: يا ربنا لم نذر فيها أحداً. فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حُمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة فيخرجون منه كما تخرج الحبّة في حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلي الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظلّ أبيض. قالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية. قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون: هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الله الجنّة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتم فيها فهو لكم

فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين. فيقول الله تعالى: إن لكم عندي أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا أيّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١).

وقال ﷺ:

«عرض لي جبرئيل في جانب الحرّة فقال: بشّر أمتك انه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. فقلت: يا جبرئيل وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن سرق وإن زنى. قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر»(٢).

وقال ﷺ:

«إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل، فقيل له: هذا فداؤك من النار»(٣).

فهذه الأحاديث وغيرها الكثير تبشّرنا بسعة رحمة الله تعالى: فنسأل الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه وأن يتفضّل علينا كما هو أهله بمنّه وسعة جوده ورحمته.

---

(١) رواه مسلم: ج ١ ص ١١٥.
(٢) أخرجه مسلم: ج ١ ص ٦٥.
(٣) رواه مسلم: ج ٨ ص ١٠٤.

الفهرس

المراقبة والمحاسبة

المقدمة ٧
المشارطة ١١
فضيلة المراقبة ١٧
حقيقة المراقبة ودرجاتها ١٩
فضيلة المحاسبة ٢٩
حقيقة المحاسبة ٣٢
معاقبة النفس ٣٤
المجاهدة ٣٦
المعاتبة ٤٣

التوبة

مقدمة ٥٣
حقيقة التوبة ٥٥
وجوب التوبة وفضلها ٥٧
وجوب المسارعة إلى التوبة ٦٣
التوبة واجبة على الجميع ٦٦
تقبل التوبة إذا كانت صحيحة ٧٦
أمهات الذنوب منابعها وأقسامها ٨٤
الذنوب الكبيرة والذنوب الصغيرة ٨٧
الحكمة من ابهام حدّ الكبائر ٩٥
مراتب الحسنات والسيئات ٩٧
أسباب صيرورة الذنوب الصغيرة كبيرة ١١١
شروط التوبة وعلاماتها ١١٧
مراتب التائبين ١٢٤
ما ينبغي أن يبادر إليه التائب ١٣٣
طرق معالجة الذنوب ١٣٧
أسباب الإصرار على الذنب عند المؤمن ١٤٧

الموت وما بعده...

مقدمة ١٥٥

فضيلة ذكر الموت ١٥٧

طريق تحقيق ذكر الموت في القلب ١٦٣

فضيلة قصر الأمل ١٦٥

أسباب طول الأمل وعلاجه ١٦٨

مراتب الناس في طول الأمل وقصره ١٧١

مخاطر تأخير العمل الصالح ١٧٤

سكرات الموت وشدّته ١٧٧

ما يستحب أن يكون عليه المحتضر عند الموت ١٩١

حكايات عن لقاء ملك الموت ١٩٦

آداب حضور الجنائز ٢٠٠

زيارة القبور والدعاء للميّت ٢٠٢

حقيقة الموت ٢٠٨

عذاب القبر ٢١٨

سؤال منكر ونكير ٢٢٧

النفخ في الصور ٢٣٢

أرض المحشر ٢٣٦

يوم القيامة ٢٤٣

الميزان ٢٥٧

الصراط ٢٦٣

الشفاعة ٢٦٧

الحوض ٢٧٢

جهنّم وأهوالها ٢٧٥

الجنة ونعيمها ٢٨٨

أهل الجنة ٢٩٨

وفاة رسول الله ﷺ ٣١٣

موت الولد ٣٣٠

الموت والنوم ٣٣٢

سعة رحمة الله ٣٣٨

الفهرس ٣٤٣